أبحـــاث

تلامذة الإمام محمد عبده في التجديد الفكري والثقافي(*)

أ. أحمد تمام(**)

محمد عبده مربيًا :

دارت حياة محمد عبده(١) كلها حول التربية والتعليم، والتوجيه والإرشاد، وتحرير العقل، ومحاربة الجهل والخرافة، وإصلاح المقررات والمناهج، وتكوين الطلبة والتلاميذ، والنهوض بالأمة من الضعف والانحلال، ولم تفارقه روح المعلم حتى وهو في مرحلة الطلب الأولى يخطو خطواته العلمية طالبًا في الجامع الأحمدي بطنطا، فيذكر أن بعض الطلبة من أقرانه كانوا يلتفون حوله ليشرح لهم قبل الدرس ما سيتلقونه عن شيخهم، فكان يوضح لهم ما غمض، ويبيِّن ما أبهم(٢) .

(*) بحث مقدم في احتفالية مكتبة الإسكندرية بمئوية الإمام محمد عبده ٤-٥ /١٢ /٢٠٠٥.

(**) ماجستير تاريخ إسلامي من كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

(١) ولد الإمام محمد عبده في قرية «شنرا» التابعة لمركز السنطة بمحافظة الغربية سنة (١٢٦٦ هـ = ١٨٤٩م) حسبما جاء في ملف الإمام محمد عبده الموجود في دار المحفوظات العمومية المصرية، وقد نشر مجاهد توفيق الجندي صورة من بعض ملفات الإمام في دراسة منشورة له بمجلة الأزهر في العدد التاسع (رمضان ١٤٢٦ هـ = أكتوبر ٢٠٠٥م) ضمن دراسات احتفالية الأزهر بمرور مائة عام على وفاة الإمام محمد عبده، وتثبت الصورة المنشورة أن قرية «شنرا» هي محل ميلاد الشيخ محمد عبده، وليست قرية محلة نصر التابعة لمركز شبراخيت بمحافظة البحيرة التي يتفق كثير من الباحثين الذين ترجموا لمحمد عبده أنها محل مولده، وتجدر الإشارة إلى أن العقاد يذكر أن محمد عبده ولد بقرية «حصة شبشير» من قرى محافظة الغربية، وهي لا تبعد كثيرًا عن قرية شنرا، ويذكر رشيد رضا في مجلة المنار في المجلد الثامن، ص : ٣٨، في معرض ترجمته لمحمد عبده أن أباه «تزوج من قرية تسمى «حصة شبشير» القريبة من مدينة طنطا، وأقام معها في قرية تسمى «شتر» إلى أواخر مدة عباس باشا الأول والي مصر، ولعلها اسم القرية التي جاء ذكرها في ملف الإمام .

(٢) محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** (٢ / ٣٢٤) .

ولما انتقـــل إلى الجـامع الأزهر سنة (١٢٨٢ هـ = ١٨٦٦م)، واتصل بجمال الدين الأفغـانى، وتعلم على يديـه وتأثر بـه، كـان يعـاون زملاءه الطـلاب فى دروســهم، وقـرأ لهم طائفـة من الكتب العالية فى علم الكلام التي كانت لا تقرأ فى الأزهر، مثل شرح التفتازانى المتوفى ســنة (٧٩١ هــــ = ١٣٨٩م) على العقائد النسفية .

وبعد تخرجـــه وحصولـه على العالمية سنة (١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م) أقبل على التدريس، وألقى على تلاميذه دروسًا فى موضوعـــات كثـيرة فى المنطق وعلم الكـلام، وقـرأ فـى بيتـــه دروسًـــا فى الأخلاق والسياســة لطائفة من الطلاب الذيـن أقبلـوا عليـــه، فقـرأ لهـم كتـــاب تهذيـب الأخلاق لابن مســكويه المتوفى سنة (٤٢٢ هـ = ١٠٣٠م)، وحاضرهم فـى علـم السياســـة معتمـدًا على كتـاب «التحفـــة الأدبيـة فـى تـاريخ الممـالك الأوربيـة للوزيـر الفرنســـى» فرانســـو جيزو»(١) .

ثم لم يلبث أن عُيِّن فى سنة (١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨م) مدرسًا للتاريخ بمدرسة «دار العلوم» التـى أنشـأها علـى باشـا مبارك فـى سنة (١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م) عندمـا كـان نـاظرًا للمعـارف فـى عهد الخديـوي إسمــاعيل، وقـرأ علـى تلاميذه لأول مرة مقدمـة ابـن خلدون، ولم يكن لهذا النـوع من الـدرس عهـد فـى مصر، وكـانت طريقـة الشـيخ جديدة مبتكرة، فهو يبسـط آراء ابن خلدون فى أسباب نهوض الأمم وسقوطها وأصول الحضارة والعمـران البشـرى، ثـم يعقب علـى ذلك بآرائـه الخاصــة فى الشـؤون السياسـية والاجتماعيـــة التى كونهـــا مـن خلال قراءاتـه فى الكتب الحديثـة، ثم يطبق هذا كلـه على شـؤون أمتـه، ويبـين أسـباب ضعفهـا، والوسـائل التـى تعيد إليهـا مـا فقدت مـن عزهـا ومجدهـا، ولا يكتفـى بذلـك، بل يكلف تلاميذه كتابة المقالات والفصـول(٢). «وكتـب فـى هـذه الفـترة كتابًـا حـافلاً فى علم الاجتماع وفلسـفة التـاريخ، انتقـد فيـه بعـض مـا قالـه ابن خلدون واستدل عليـه، وبيَّن ما نسـخته طبيعة الاجتماع فى هذا العصر»، غير أن

(١) هذا الكتاب ترجمه عن الفرنسية نعمة الله خورى، وكان الأفغـانى ومحمد عبده قد تنبَّها إلى أهمية الكتاب فقرَّظاه فى صحيفة الأهرام، ويذكر الشيخ رشيد رضا أنه لا يدرى إن كان الإمام قد أتم قراءة هذا الكتاب على تلاميذه أم لا . [تاريخ الأستاذ محمد عبده : (١ / ١٣٥)، ومجلة المنار (٨ / ٤٠٤) .

(٢) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** (١ /١٣٦)، تشارلز آدمس : **الإسلام والتجديد فى مصر** : ص ٤٣

هـذا الكتـاب فُقِد وضـاعت أصولـه(١)، وفـى الوقت نفســـه عُيِّـن محمـد عبده مدرسًـا للعلوم العربية فى مدرسة الألسن الخديوية، فجمـع بذلك بين العمـل فيها ودار العلـوم والأزهـر، متبعًـــا طرائـق جديدة فـى الدرس والشـرح، مسـتعينًا بكتب تربى العقل وتحرر الفكر، وتهذب الخلـق، مبتغيًـا «إيجاد نابتـة من المصريين تحيى اللغـة العربيـة والعلوم الإسـلامية، وتقوم عوج الحكومة»(٢) .

ولم يطـل عمله بـالتدريس الذى كان يعقد عليـه آمـالاً كـبيرة فى الإصلاح، فـأقيل مـن دار العلوم ومدرسـة الألسـن بعـد تولّى الخديـوي توفيـق حكـم البلاد خلفًـا لأبيـه إسماعيل الـذى تنازل لـه عن العـرش فـى (٣ مـن جمــادى الآخـرة ١٢٩٦هــ = ٢٥ من يونيـه ١٨٧٩م)، وحدِّدت إقامتــه فى قريتـه «محلـة نصر» وأمـر ألاّ يغادرهـا، وكـان ذلك بسـبب صلته الوثيقـة بجمال الدين الأفغانى الذى نفاه الخديـوي توفيق إلى خارج البلاد فى سنة (١٢٩٦ هـ = ١٨٧٩م)(٣) .

ثم عمـل بالصحافـة، وأسـند إليـه «رياض باشـا» ناظر النظـار فى سنة (١٢٩٧ هـ = ١٨٨٠م) رئاسـة تحرير جريـدة الوقـائع المصريـة، وهى لسـان الحكومـة الرسمى، وخوَّلـه أن يشـرك معه بعـض المحررين، وكـان مـن بـين مـن اختـارهم صديقـه عبد الكريم سـلمان، والشـيخ سـعد زغلول الـذى كان يومئذ طالبًـا فـى الأزهـر فـى نحـو الحاديـة والعشـرين من عمـره، والذى صـار فيما بعـد زعيـم الحركـة الوطنيـة فـى ثورة ١٩١٩م(٤)، وكـان الإمـام محمـد عبده قبل أن يعهد إليـه بتحرير الوقـائع المصرية قد اتصـل بالصحافـة، وكتـب مقـالات كثيرة بجريدة الأهـرام الأسبوعية، وهو لا يزال طالبًـا فـى الأزهر، ونشـرت أول

(١) يقول رشيد رضـا : فقد هذا الكتاب عندما عزله توفيق باشا من المدرسـة، ونفى السيد جمال وأخذت أوراقه، وكان طيب الله ثراه يقول : أتمنى لو يحفظ هـذا الكتاب من وقع فى يـده، ويدعيه لنفسـه ولو بعد موتى لينتفع بـه الناس، وقد سـألت عنه محمـد باشا صـالح المستشـار فى محكمة الاسـتئناف إذ كان ممـن حضره عليه، فقـال لى : إننى كنت أكتب ما يمليـه الأستاذ في تلـك الدروس، فطلبتها منه فقـال : إنها بين أوراقه القديمـة فى البلد، وعسـى أن أبحث عنها وأجدها عند زيارتى للبلد فى الإجازة، ولكنه توفى ولم يفعل رحمه الله.. محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** (١ /٧٧٨).

(٢) مجلة المنار : ٨ / ٤٠٤، محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام (١/١٣٦).

(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام (١/٧٦).

(٤) انظر فى تفـاصيل تعيين محمد عبده محررًا لجريدة الوقائع المصريـة ما كتبـه تلميذه محمد رشيد رضـا فى كتابه: **تاريخ الأستاذ الإمام** (١/١٣٧).

مقالة فى (١٤ من شعبان سنة ١٢٩٣هـ = ٤ سبتمبر ١٨٧٦م)[1]، وتوالت بعد ذلك مقالاته، وكان أسلوبه فى هذه الفترة متأثرًا بلغة عصره من الحرص على السجع والصور البيانية القديمة، ثم ما لبث أن تحرر أسلوبه واتجه إلى البيان العربى المرسل المشرق الديباجة[2].

ولم تكن جريدة الوقائع فى هذه الفترة سوى «إعلانات رسمية مع بعض أخبار إدارية ووقائع محلية»، فبادر الشيخ الشاب إلى النهوض بها وتوسيع ميدان نفوذها، وتحولت الجريدة إلى منبر لنشر الدعوة وإعلان الشكوى، وإسماع الحكومة ما تريد أن تسمعه وما لا تريد أن تسمعه، وكتب على صفحاتها كل ما يمكن أن يقوله لو تكلم أو حاضر فى حلقات الأزهر أو قاعات دار العلوم[3].

وكان من أهم إنجازاته فى أثناء عمله بالوقائع العمل على رفع مستوى التحرير فى التقارير الرسمية، حتى اضطر كثير من رؤساء الكتاب إلى تلقى دروس فى اللغة العربية، وأنشئت لهذا الغرض مدارس ليلية لتعليم الكتاب ومحرري الصحف، وتطوع محمد عبده لإلقاء الدروس بها .

وبلغ من حرصه على ضرورة النهوض بالتحرير فى الصحف العربية – وكانت له سلطة المراقبة على الجرائد الوطنية والأجنبية التى تصدر فى مصر - أن أنذر مدير جريدة معروفة بتعطيل جريدته إذا لم يختر لها محررًا صحيح العبارة، وبهذا استثمر سلطته فى الارتقاء بمستوى التحرير، ومهّد لتقدم النهضة الأدبية فى مصر[4]، ولم يكتف بذلك، بل أنشأ قسمًا أدبيًّا فى الجريدة، ليتسنى له نشر ما يعن له ولأعوانه من أفكار وآراء تتصل بالشأن العام[5] .

وكانت مقالات محمد عبده تدور حول النهوض بالبلاد والرقى بأبنائها، ووضع أسس للإصلاح والخروج من النفق المظلم الذى تعيش فيه الأمة، وكان مجال التربية والتعليم من المجالات التى حظيت باهتمام الشيخ الشاب، وتعددت

(١) عبد اللطيف حمزة : **أدب المقالة الصحفية فى مصر** : (٢/ ٧٧) .
(٢) كان الشيخ محمد عبده يمد جريدة الأهرام بمقالاته من العدد الخامس حتى العدد الواحد والأربعين . المصدر السابق ٢ /٧٩) .
(٣) عباس محمود العقاد : **عبقرى الإصلاح والتعليم** : ص ١٨٠
(٤) انظر تفاصيل ذلك فى تاريخ الأستاذ الإمام (١ /١٣٨ - ١٤٠).
(٥) كتب الأستاذ الإمام فى جريدة الوقائع المصرية أكثر من ثلاثين مقالة فى التربية والسياسة والاجتماع وكانت أول مقالة له بعنوان «حكومتنا والجمعيات الخيرية» بتاريخ (١٤ من ذى القعدة سنة ١٢٩٧هـ - ١٩ من أكتوبر ١٨٨٠م). عبد اللطيف حمزة : **أدب المقالة الصحفية فى مصر** : (٢/ ٨١) .

مقالاتـه حول التعليـم وقضاياه «فالذين يرومون الخير الحقيقى لوطنهم يجب أن يوجهوا اهتمامهم إلى إتقان التربية ونشر التعليم، إذ أن إصلاح تظم التربية والتعليم فى البلاد يجعل وجوه الإصلاح الأخرى أكثر يسرًا»(١).

وكان يرى أن النهوض بالأمة إلى مستوى أعلى من الثقافة والتربية ليس أمرًا سهلاً كما يظنه بعض الناس، وأنه ليس بمجرد تحصيل شتات من العلوم الأوربية أو محاكاة الأوربيين فى أحوال معيشتهم؛ لأن الغاية من التعليم إذا فهمت على هذا النحو فإن النتيجة ستكون البعد عن الطريق المستقيم الموصل إلى المجد الحقيقى والشرف الذاتى(٢)، والوصول إلى حالة التمدن التى عليها «جيراننا فى الممالك الغربية، ليس بنقل أفكارهم وعاداتهم وأطوارهم دون فحص ذلك»(٣).

وتناولت مقالاته الأخرى فى جريدة الوقائع موضوعات: الزواج باعتباره ضرورة اجتماعية(٤)، وتعرض لمسألة تعدد الزوجات(٥)، وكتب عن البدع الدينية الضارة والمنافية لروح الدين، وعن الإسراف وجنون الإنفاق(٦)، وتعرض لحكومة الشورى(٧)، وذكر أن كل تشريع يضعه ممثلو الأمة المختارون ينبغى أن يكون متفقًا مع روح الإسلام منذ نشأته، وأن من واجب الرعية مناصحة الحكام عن طريق مندوبيهم(٨)، ولم تأت الشريعة بكيفية مخصوصة لمناصحة الحكام، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من وضع نظام خاص يكفل تحقيق العدالة والمصلحة العامة(٩).

وهدف الشيخ محمد عبده من وراء عمله فى رئاسة تحرير الجريدة الذى استمر نحو ثمانية عشر شهرًا(١٠) رفع مستوى الأمة وتقويم أخلاقها والنهوض

(١) محمد رشيد رضا: **تاريخ الأستاذ الإمام** (٢ / ١٢٢).
(٢) تشارلز آدمس: **الإسلام والتجديد فى مصر**، ص ٤٧
(٣) محمد رشيد رضا: **تاريخ الأستاذ الإمام** (٢ / ١٢٣).
(٤) نشر مقالة بخصوص هذا الشأن بعنوان حاجة الإنسان إلى الزواج فى **الوقائع المصرية**، العدد ١٠٥٥ فى (٧ من ربيع الأول ١٢٩٨هـ - ٧ من مارس ١٨٨١م). **الأعمال الكاملة لمحمد عبده**: ٢ / ١٦٦.
(٥) نشر مقالة بعنوان «حكم الشريعة فى تعدد الزوجات» فى **الوقائع المصرية**، فى العدد (١٠٥٦).
(٦) انظر هذه الموضوعات فى **الأعمال الكاملة لمحمد عبده**: ٢ / ٨ - ١٥٦
(٧) انظر ما كتبه فى هذا الشأن مقالاته الثلاث: فى الشورى والاستبداد، فى الشورى، الشورى والقانون. **الأعمال الكاملة لمحمد عبده**: ١ / ٣٨١ - ٣٩٩.
(٨) تشارلز آدمس: **الإسلام والتجديد فى مصر**، ص ٤٨.
(٩) انتهت صلته بجريدة الوقائع المصرية فى (مايو ١٨٨٢م).

بها نهضة ثقافية واجتماعية فى تدرج وأناة ومن غير عنف ولا طفرة، وكان يعتقد أن ذلك يتم إذا سلك قادتها سبيل التربية والتثقيف، لا سبيل تقليد الغرب من غير فهم بصير ولا إدراك عميق، والتمسك بظواهر المدنية المادية مع إغفال صميم المدنية الروحية الصحيحة[١]، ويصور تلميذه الشيخ رشيد رضا عمل أستاذه محمد عبده تصويرًا دقيقًا يكشف عن شخصية الإمام وميادين توجهه، ورؤيته للأدواء التى تحتاج إلى إصلاح، وأوليات اهتماماته، فيقول : «كان يشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها، فيصلح لعمالها ما يكتبون ويرشدهم إلى إصلاح العمل فيما يعملون، ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الأمة فيقوم من أخلاقها، ويصلح ما فسد من عاداتها، ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربيها على الصدق فى القول[٢].

وقد ساهمت هذه الكتابات فى إيقاظ الرأى العام، ونمو الحركة الوطنية، وتهيئة الأمة للمطالبة بالتغيير والإصلاح، الأمر الذى أوجد إطارًا فكريًّا انطلقت من رحمه الثورة العرابية، وكان من أسباب قيامها، ولم يكن محمد عبده مشايعًا لها فى بادئ الأمر ؛ لأنه كان يرفض أسلوب الثورة خشية وقوع البلاد تحت الاحتلال الأجنبى، ويرى أن أول ما يجب أن يبدأ به هو التربية والتعليم، لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية التى كان من أنصارها، وأن يكون ذلك على بصيرة، وحمْلِ الحكومة على العدل والإصلاح، وتعويد الأهالى على المشاركة فى المصالح العامة[٣] .

ولما فشلت الثورة العرابية اتهم محمد عبده بالتآمر مع رجالها، وسيق إلى المحاكمة مع زعماء الثورة، وحكم عليه بالسجن، ثم بالنفى ثلاث سنوات، ومنع من العودة إلى البلاد حتى تأذن له

---

(١) عثمان أمين : **رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده**، ص ٣١ .

(٢) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** (١ / ١٣٩).

(٣) انظر فى تفاصيل موقف الشيخ محمد عبده من الثورة العرابية، ثم انخراطه فى أعمالها ما كتبه الشيخ محمد رشيد رضا: **تاريخ الأستاذ الإمام** (١ / ١٤٥)، وما بعدها، عبد العاطى محمد أحمد **فى الفكر السياسى للإمام محمد عبده** (٨٨ ــ ٩١)، عباس محمود العقاد فى «**عبقرى الإصلاح والتعليم**»، ص ١٦١ ــ ١٦٢، زكريا سليمان بيومى فى «**التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين**» دراسة تاريخية فى فكر الشيخ محمد عبده : ص ٧١ - ٧٣، تشارلز آدمس: **الإسلام والتجديد فى مصر**، ص ٥٠ - ٥٣ .

الحكومة بذلك، فغادر مصر إلى بيروت فى (١٣ من صفر سنة ١٣٠٠ هـ = ٢٤ من ديسمبر ١٨٨٢م)[١]، ولم تطل إقامته الأولى هناك، فبعد عام كتب إليه جمال الدين الأفغانى – وكان فى باريس – يدعوه للحاق به والعمل معه فى تأسيس جمعية وصحيفة أسبوعية باسم «العروة الوثقى» للدعوة إلى الجامعة الإسلامية ولمناهضة الاحتلال الأجنبى، وبث روح العزة فى النفوس، وكانت «العروة الوثقى» أول صحيفة عربية ظهرت فى أوربا، وقد صدر منها ثمانية عشر عددًا، اولها فى (١٥ من جمادى الولى سنة ١٣٠٢ هـ = ١٣ من مارس سنة ١٨٨٤م)، وآخرها فى (٢٦ من ذى القعدة سنة ١٣٠٢ هـ = ١٧ من أكتوبر ١٨٨٤م)[٢] .

وكان عمله فى هذه الجريدة عمل المحرر الأول، ولما كان لهذه الجريدة من أثر فى إيقاظ الوعى فى العالم الإسلامى فقد خشيت بريطانيا من امتداد تأثيرها، فحالت دون وصولها إلى أيدى قرائها، وهو ما عجل بتوقفها، فاحتجبت عن الظهور بعد العدد الثامن عشر، وافترق المصلحان الكبيران، فسافر جمال الدين الأفغانى إلى فارس، ورجع محمد عبده إلى بيروت .

وفى بيروت توقف محمد عبده عن العمل السياسى الصريح بعد أن ازداد إيمانًا بعقمه وضعف الأمل فى الملوك والأمراء، وضرورة الاعتماد على الأمة فى النهوض والإصلاح بالعلم النافع، والتربية الاجتماعية الصالحة، وقد عبَّر عن قناعته تلك بقوله لبعض تلاميذه : «إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة، وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات، ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا، فلا تمضى عشر سنين إلاّ ويكون عندنا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب، فينتشر أحسن الانتشار، فقال : إنما أنت مثبط»[٣].

(١) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** (١ / ٢٧٤) .
(٢) محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** : ١ / ٢٩ .
(٣) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** (١ / ٨٩٤).

وتفرغ الإمام محمد عبده في بيروت للتعليم والتثقيف والتوجيه والإرشاد، فأخذ يلقى دروسًا فى تفسير القرآن فى «الجامع الكبير» و«جامع الباشورة»، من مساجد بيروت، لا يلتزم فيه كتابًا، وإنما يقرأ الآية من القرآن ويفسرها من عنده بما يختار من التفاسير وبما يفيض الله على قلبه، ويستطرد فى شرح أحوال المسلمين ونقدهم حسبما تلهمه الآية(١).

وبلغ من شهرة الشيخ فى تفسير آى القرآن أن جذب إليه بعض المستنيرين من المسيحيين، فكانوا يحضرون هذه الدروس، فيذكر رشيد رضا «أنهم استأذنوه فى دخول المسجد والجلوس فى ناحية من حلقات الدرس فأذن لهم»(٢).

ثم دعى إلى المدرسة السلطانية ببيروت فى سنة (١٣٠٣ هـ = ١٨٨٦م)، ولم يكن يدرس بها من العلوم العربية سوى مبادىء النحو والصرف، فارتفع بها إلى ما يشبه المدارس العالية، بعد أن أصلح برامجها، ودرَّس فيها التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الإسلامى، والفقه على مذهب أبى حنيفة، وجعل من بيته ندوة للحديث العلمى والأدبى، وشرح فى أثناء إقامته هناك: نهج البلاغة، وديوان الحماسة، واتصل بالصحف فكتب فى جريدة «ثمرات الفنون» مقالات شبيهة بمقالاته فى «الوقائع المصرية» والتفت إلى المصالح العامة للدول الإسلامية، فانتهز فرصة صدور إرادة سنية من السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى بتشكيل لجنة تحت رياسة شيخ الإسلام لإصلاح البرامج التعليمية فى المدارس الإسلامية، فوضع لائحتين فى إصلاح التعليم الديني، ورفع واحدة منهما إلى الآستانة مبينًا فيها أن ضعف المسلمين سببه سوء فهم العقيدة والجهل بأصول الدين، وفساد الأخلاق، وأن العلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الدينى، وأما اللائحة الأخرى فقد رفعها إلى والي بيروت أرجع فيها سوء الحال إلى كثرة المدارس الأجنبية، واقترح تعميم المدارس الوطنية، وإصلاح برامج التعليم الدينى والعناية به(٣).

---

(١) المصدر السابق: ١ / ٣٩١.

(٢) المصدر السابق: ١ / ٣٩١.

(٣) اقرأ فى هذا الشأن ما كتبه تلميذاه «شكيب أرسلان» و«عبد الباسط فتح الله» وهما ممن حضروا دروسه فى بيروت، محمد عمارة: **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده**: ١ / ٣٩٣ - ٤١٥، وانظر: أحمد أمين: **زعماء الإصلاح فى العالم الإسلامى**، ص ٢٠٨، ٢٠، تشارلز آدمس: **الإسلام والتجديد فى مصر**، ص ٦٣.

وبعد أن أقام فى بيروت نحو ثلاثة أعوام ونصف صدر عفو الخديوى توفيق باشا عنه بسعى بعض أصحاب النفوذ من تلاميذه، وكبار أصدقائه ومحبيه، فعاد إلى مصر سنة (١٣٠٦ هـ = ١٨٨٩م)، وكان يود لو عاد إلى التدريس فى دار العلوم، حتى يتسنى له تربية أجيال جديدة على أساس من فكره وآرائه، لكن الخديوي توفيق رفض ذلك خوفًا من تأثير الشيخ[1]، وعينه قاضيًا فى المحاكم الشرعية، وظل يرتقى حتى عين مستشارًا فى محكمة الاستئناف بالقاهرة سنة (١٣١٢هـ = ١٨٩٦م)، وكان على منصة القضاء يتحرى الحق، وإصابة العدل فى القضايا، ويسعى لحل المشكلات بالتوفيق بين الخصوم، ويصلح بينهم إن وجد إلى ذلك سبيلاً، فإن أعانه القانون على ذلك تمسك به، وإن لم يجد لجأ إلى روح القانون، وصرف نظره عن حرفيته[2]، وكان يتوخى فى أحكامه تربية الجمهور وإيقاظ ضميره، وبخاصة فيما يتعلق بجرائم الفسق وشهادة الزور، وقد شهد له معاصروه من القضاة أنه كان معلّمًا فى أحكامه، وأنه كان من لوازمه التأمل والتدبر ومراجعة الفكر قبل أن ينتهى إلى الحكم الذى يقرن النطق به بأداء واجبه فى الإرشاد والتنوير والنصح والتوجيه، حتى ليبدو المحكوم عليه مقتنعًا بما حكم ضده به[3].

ثم اتصل الشيخ محمد عبده بالخديوي عباس حلمى الثانى، وأقنعه بضرورة إصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية والاجتماعية، ممثلة فى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية، ونجح فى استصدار قانون فى (١٧ من رجب ١٣١٢ هـ = ١٥ من يناير ١٨٩٥م) شُكّل بمقتضاه مجلس إدارة الأزهر من أكابر شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة، واختير الشيخ محمد عبده وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان فى مجلس الإدارة ممثلين للحكومة، دون أن يكون لشيخ الأزهر أو لمجلس إدارته رأى فى انتخابهما[4].

وكان الشيخ محمد عبده الروح المحركة للمجلس فبدأ بإدخال اللوائح الإدارية المنظمة للأزهر ـ وكان يرى أن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام،

---

(١) محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** : ١ / ٣٢ .
(٢) تشارلز آدمس : **الإسلام والتجديد فى مصر**، ص ٦٧ .
(٣) انظر فى ذلك ما كتبه عبد الحليم الجندى فى كتابه : **الإمام محمد عبده**، ص ٥١ ـ ٥٥ .
(٤) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** (١ / ٤٢٧).

فإن إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم ـ فعمل على زيادة رواتب علماء الأزهر، وجعل ذلك وفق درجاتهم، ووجه عنايته إلى الاهتمام بمساكن الطلبة المجاورين، وتجديد أثاثها، وتحسين شروطها الصحية، وأوصل إليها المياه والكهرباء، وعين طبيبًا لمباشرة شؤون الطلبة الصحية، وشكل لجنة للنظر فى نظام التدريس من ثلاثين عالمًا، وعهد إليها فحص العلوم التى تدرس بالفعل، واقتراح ما ترى إضافته من علوم، على أن ترفع اقتراحاتها إلى مجلس الإدارة، واهتدت اللجنة إلى مقترحات جديدة بشأن المواد الدراسية التى ضمت علومًا جديدة كالحساب ومبادئ الهندسة، وتقويم البلدان، وبشأن طرق التدريس، وأوقات الإجازات الدراسية، ونظم الامتحانات، غير أن هذه المقترحات قابلتها عقبات فى سبيل تنفيذها، ووقفت فى وجهها عواصف هائجة، وبخاصة بعد أن ساءت العلاقة بين الخديوي والشيخ محمد عبده، ومعارضة المحافظين من علماء الأزهر فى قبول هذه التجديدات[١].

وفى (٢٤ من المحرم سنة ١٣١٧ هـ = ٣ من يونيو ١٨٩٩م) عين الشيخ محمد عبده مفتيًا للديار المصرية، فبث فى هذا المنصب روحًا جديدة، ووسَّع من دائرة نفوذه، فلم يعد صاحبه مقصورًا على الإفتاء فيما يحال إليه من مسائل، ولا يكتب إلاَّ فى القضايا التى تحال عليه من المصالح، بل فتح بابه لإفادة الأفراد[٢]، وتناولت فتاواه الأمور التي نشات عن اختلاط المسلمين بغيرهم، ممن يخالفونهم فى الجنسية والدين، وأيضًا التى استحدثت بفعل المدنية الحديثة، ولم يتح لأحد من الفقهاء قبله أن يقف عليها أو يشهد حدوثها[٣] .

وفى أثناء عمله بدار الإفتاء عهدت إليه الحكومة بالتفتيش على المحاكم الشرعية، وبحث حالها ؛ فكتب تقريرًا ضافيًا عن أحوال المحاكم الشرعية فى ثلاث وثمانين صفحة، بعد أن طاف الوجهين القبلى والبحرى فى مصر، ولم

(١) المصدر السابق : ١ / ٤٢٧ - ٤٢٩ .

(٢) انظر ما كتبه الشيخ أحمد أبو خطوة حول توسيع الشيخ محمد عبده لنفوذ منصب المفتى فى كتاب **تاريخ الأستاذ الإمام** : ١ / ٦١٨ - ٦١٩ .

(٣) انظر فى هذا الشأن ما كتبه عبد الله مبروك النجار فى بحثه عن ملامح التجديد فى فتاوى الإمام محمد عبده فى **مجلة الأزهر**، العدد التاسع، السنة ٧٨ (رمضان ١٤٢٦ هـ - أكتوبر ٢٠٠٥م) .

يدع محكمة فى مديرية أو مركز إلا وزارها، ووقف على أمرها، وتعرف حال موظفيها، وذكر فى تقريره مواضع الخلل وأسباب القصور فى أداء تلك المحاكم، وبيَّن طرق العلاج وما يراه مناسبًا للنهوض بأعمالها، وسبل الارتقاء بمستوى القضاة، واقترح مشروع إنشاء مدرسة القضاء الشرعى لتمد المحاكم بالأكفاء من القضاة الشرعيين[1]، وكان من رأى الأستاذ الإمام الذى بثه فى مقالاته أن يتلقى طلاب مدرسة القضاة الشرعى العلوم العصرية، فيتعلمون إلى جانب الفقه والأحكام والمعاملات، الحساب والتاريخ وتقويم البلدان[2] .

كما بدأ الشيخ محمد عبده يلقى دروسه فى تفسير القرآن الكريم بالجامع الأزهر فى الرواق العباسى، وذلك فى شهر (المحرم ١٣١٧ هـ = يونيو ١٨٩٩م)، واستمر فى إلقائها نحو ست سنوات[3]، وبلغ فى التفسير من أول القرآن الكريم وحتى الآية (١٢٥) من سورة النساء، وكان يحضر هذه الدروس عدد كبير من تلاميذه ممن صاروا بعد ذلك من أعيان الثقافة والفكر والإصلاح فى عصره من أمثال : محمد رشيد رضا، وعبد العزيز جاويش، وأحمد إبراهيم، وعبد الوهاب النجار، وأحمد تيمور باشا[4] .

وإلى جانب عمله بالإفتاء تولى رئاسة الجمعية الخيرية الإسلامية سنة (١٣١٨ هـ = ١٩٠٠م)، وكان قد شارك فى تأسيسها من قبل بهدف نشر الثقافة بين الطبقات الفقيرة، ومد يد العون إليهم[5]، كما أسس «جمعية إحياء الكتب العربية القديمة» للعناية بنشر روائع المؤلفات العربية، وذلك فى سنة (١٣١٨ هـ = ١٩٠٠م)[6]، وتولى الرد والدفاع عن الإسلام فى مواجهة مطاعن جبريل هانوتو وزير خارجية فرنسا، وفرح أنطون الذى نشر مقالة عن الفيلسوف ابن رشد، أكد فيها أن المسيحية كانت أرحب صدرًا فى مواجهة العلماء

(١) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** (١ / ٦٢٠ - ٦٢٢).
(٢) محمد رجائى عطية : الأستاذ محمد عبده عبقرية الإصلاح فى رحاب القضاء، بحث منشور فى **مجلة الأزهر**. العدد التاسع، السنة ٧٨، ص ٦، ١٦ .
(٣) محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** : ١ / ٣٤ - ٣٥ .
(٤) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** : (١ / ٧٧٣).
(٥) المصدر السابق : ١ / ٧٢٦ .
(٦) المصدر السابق : ١ / ٧٥٣ .
(٧) تشارلز آدمس : **الإسلام والتجديد فى مصر** : ص ٨١ - ٨٦ .

والفلاسفة(٧) .

وفى (٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ = ١١ من يوليو ١٩٠٥م) توفى الشيخ محمد عبده، عن حياة فكرية خصبة، وجهود فى التربية والإصلاح، وآمال واسعة لم يتسع له الوقت لإنجازها، وإن أنجز كثير منها بعد وفاته، بفضل تلاميذه ومحبيه .

*** مفهوم التجديد عند محمد عبده :**

رأى الشيخ محمد عبده أن المسلمين بلغوا حالة من التخلف والتردى والضعف تدعو إلى الأسى والحزن، وأن المحاولات الإصلاحية التى سبقته لإصلاح حال المسلمين لم يكتب لها النجاح الكامل، وأن الإصلاح السياسى لا يمكنه وحده القيام بعبء النهوض، وكان لابد من تحديد الأدواء التى ألمت بالأمة، وتشخيص الأمراض التى أنهكت جسدها العليل، فأرجع ما حل بها إلى غلبة الجهل وتغييب العقل، وسوء فهم الدين، وظهور الفرق والشيع التى أدت إلى تمزيق وحدة الأمة بما أحدثته من اضطراب فى فهم الأصول الإسلامية، يضاف إلى ذلك غلق باب الاجتهاد وجمود الفقهاء عند ما وصل إليهم من الأسلاف دون تغيير أو تبديل، وصار الخروج على ذلك مروقًا وخرقًا للدين . وترتب على غلق باب الاجتهاد أن ضعفت روح التجديد والابتكار، وتوقفت مسيرة الإبداع الفكرى عبر قرون عديدة، ويضاف إلى أسباب التخلف والضعف اللذين حلاً بالمسلمين أساليب الحكم الاستبدادية التى اتبعها الحكام والخلفاء المسلمين(١) .

وقد ركز الشيخ محمد عبده دعوته الإصلاحية فى أمرين «الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى، وأنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم، باعثًا على البحث فى أسرار الكون، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبًا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل، كل هذا أعده أمرًا واحدًا، وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب

(١) عبد العاطى محمد أحمد : الفكر السياسى للإمام محمد عبده : ص ٩٩ .

منهما جسم الأمة .. طلاب علوم الدين، ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم»[١].

وهذا النص يكشف عن مشروع الشيخ محمد عبده الإصلاحى الذى يجافى تيار الجمود والتقليد فى دوائر طلاب العلم الدينى، والنموذج الغربى الزاحف على العالم الإسلامى، وهو النموذج الذى ينحاز إلى الدنيا فى مواجهة الدين، وإلى العقل فى مقابلة النقل، وقد أفاض الشيخ محمد عبده فى بيان منهج الوسطية الإسلامية التى انحاز إليها فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطًا**﴾[٢]، ومما قاله فى هذا الشأن : « والحياة فى الإسلام مقدمة على الدين، أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه، وتملأ قلبه من رهبه، وتفعم أمله من رغبة، فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة، ولا تجشمه فى ترك الملذات، ما فوق العادة ...»[٣].

أما الأمر الثانى الذى عُنى به فى دعوته الإصلاحية فهو «إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير، سواء كان فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجمًا من لغات أخرى أو فى المراسلات بين الناس»[٤].

وأولى الشيخ محمد عبده التربية الإسلامية الصحيحة وإصلاح التعليم عنايته الكبرى، وجعلهما غايته فى تحقق الإصلاح المنشود، وتحرير البلاد من ربقة الاستعمار الأجنبى، ونادى بالجمع بين العلوم الإسلامية الأصيلة التى «أرضعت ثدى الإسلام وغذيت بلبانه، وتربت فى حجره، وتقلدت فى إيوانه من زمن يزيد عن ألف سنة، وتناولتها أيدى الخلص منا وتناقلتها عنهم الألسنة»[٥]، وبين العلوم العصرية التى تمكن المسلمين من امتلاك أسباب القوة والتقدم ومواجهة أطماع الدول الأوربية، وهو يدعو إلى النقل الواعى والاقتباس البصير من الغرب

(١) طاهر الطناحى : **مذكرات الإمام محمد عبده** : ٢٦ - ٢٧ .
(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .
(٣) محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** : ٣/ ٢٩٤ .
(٤) طاهر الطناحى : **مذكرات الإمام محمد عبده** : ٢٧ .
(٥) محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** : ٣ / ١٧ .

المتقدم، فالوصول إلى حالة التمدن التي عند الغربيين لا يكون بنقل أفكارهم وعاداتهم وأطوارهم دون فحص أسباب ذلك»[(١)] .

وفي ضوء هذا يفهم دعوته لإصلاح الأزهر بناء على أنه ليس هناك تعارض فى الجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم العقلية من جهة، والعلوم الإسلامية من جهة أخرى، وليس فى هذا الأمر بدعة، فقد قامت الحضارة الإسلامية معتمدة على هذين الأساسين وهى فى أزهى أحوالها .

وهذا الاتجاه المحافظ المستنير جعله يدعو لإحياء التراث القديم، فشرح كتاب «نهج البلاغة» للإمام على بن أبى طالب، وكتاب «مقامات بديع الزمان الهمذانى»، وقام بتدريسهما فى أثناء إقامته فى بيروت، ونشر كتابى الجرجانى «أسرار البلاغة»، و«دلائل الإعجاز»، ودرسهما لطلاب الأزهر والمحبين له من طلاب العلم، وأسس جمعية لإحياء التراث العربى قامت بنشر كتاب «المخصص» لابن سيده، وهو من أمهات كتب اللغة، وعهد بضبطه وتحقيقه إلى الشيخ الشنقيطى اللغوى المعروف، وفى الوقت نفسه حث تلاميذه على الترجمة، باعتبارها من وسائل الاتصال بالحضارة الغربية، ولعل ما ترجمه أحمد فتحى زغلول من عيون كتب الفكر الغربى كان بتوجيه من أستاذه الشيخ محمد عبده، وهو بذلك يكون قد حمل أمانة الدعوة إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة .

ولم يكتف هو بالدعوة إلى ذلك، بل قرن القول بالعمل، فإلى جانب قيامه بتدريس الكتب العربية القديمة كان يدرس لتلاميذه كتاب فرانسوا جيزو فى تاريخ الممالك الأوربية، وتعلم الفرنسية حتى أتقنها بعد أن تجاوز الأربعين حين رأى أنه لابد من الرجوع إلى مصادر الفقه الفرنسى فى لغته الأصلية ليكون عونًا له فى القضاء، وأقدر على خدمة أمته ومصالحها، وأشار هو إلى ذلك بقوله : إن الذى زادنى تعلقًا بتعلم لغة أجنبية هو أني وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه متمكن به من خدمة أمته، ويقدر على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى إلاَّ إذا كان يعرف لغة أوربية ..

---

(١) أحمد زكريا الشلق : **حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية** : ص ٢٧٩ .

كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع الأوربيين فى جميع أقطار الأرض»(١) .

وقد اتسعت لديه ميادين الإصلاح، فشملت ما هو دينى واجتماعى وسياسى وأدبى، وترك فى كل ميدان بصمة واضحة ظل أثرها ممتدًّا، وتلاميذ مخلصين حملوا الراية بعده .

*** مدرسة الإمام محمد عبده :**

مارس الإمام محمد عبده العمل الإصلاحى والريادة العلمية والتربوية ما يقرب من ثلاثين سنة، تقلب خلالها فى وظائف مختلفة، فكان معلمًا وصحفيًّا وقاضيًا ومفتيًا، ولم يفارقه فى كل عمل قام به هاجس الإصلاح والتجديد، وتربية الأمة، والنهوض بها، والقدرة على تكوين تلاميذ يحملون فكره، ويؤازرونه فيما يذهب إليه، وقد تأثر به تلاميذ كثيرون لم يجمعهم جميعًا تيار فكرى واحد، أو عمل واحد، فكان فيهم المجدد والمحافظ والفقيه والأديب والقاضى والمؤرخ والفيلسوف والسياسى، تربطهم الرغبة فى إصلاح الوطن كل على طريقته ومشربه، والتأثر بقوة شخصية الإمام وكتاباته التي صارت مصدر وحي لرجال السياسة والاجتماع والدين والفلسفة فى مصر .

وإذا استعرضنا تلاميذه الذين تعلموا على يديه وتأثروا بأفكاره ونهجه نجد من بينهم من اختار الميدان الاجتماعى مجالاً لعمله، مثل قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨م) الذى تابع شيخه فاهتم بقضية المرأة وإصلاح أحوالها ورد اعتبارها فى ضوء أحكام الشريعة التى أنصفتها وأعطتها حقوقها كاملة، وإذا كانت المرأة قد عانت شيئًا من المظالم فى المجتمع الإسلامى، فإن الإسلام ليس بمسؤول عن ذلك، وإنما المسؤول عن ذلك العادات الجاهلة والأعراف الاجتماعية الظالمة .

وقد وجدت دعوة قاسم أمين مؤيدًا ونصيرًا من ملك حفنى ناصف المعروفة بباحثة البادية، التي أخذت تكتب عن حق المرأة في التعليم والعمل، وكانت في كتاباتها أشد محافظة من قاسم أمين وبخاصة فيما يتعلق بمسألتي الحجاب والاختلاط، وملك حفني هي ابنة حفني ناصف الذى كان واحدًا من شيعة الإمام محمد عبده ومن أفضل رجاله (٢).

---

(١) هذا النص نقلاً عن بحث رجائى عطية بعنوان الأستاذ الإمام محمد عبده عبقرى الإصلاح فى رحاب القضاء: العدد التاسع، السنة ٧٨، ص ١٦١ .

(٢) تشارلز آدمس: **الإسلام والتجديد فى مصر** : ص ٢٢٧ .

ومن بين تلاميذ الإمام محمد عبده من كانوا جسورًا ثقافية أسهمت فى بناء النهضة الفكرية والأدبية، ومرحلة انتقالية بين القديم بأسلوبه وأفكاره، وبين الحديث بطموحه وتجديده، وكان الشيخ نفسه فى بعض نواحى تجديده داعية إلى تذليل الكتب المعقدة وإعادة تدوين العلوم الإسلامية والعربية بلغة العصر، وقد بدأ من ذلك برسالة التوحيد فجدد أعوص مسائل علم الكلام بأسلوب واضح مبين، وقد جذب ذلك الدور الهام عددًا من تلامذة الشيخ . ونستطيع أن نحدد نفرًا من تلاميذه قاموا بهذا الدور خير قيام، ففى مجال الأدب : يبرز اسم **حفنى ناصف** الأديب الكبير الذى تلقى تعليمه فى الأزهر وفى دار العلوم، وكان الإمام محمد عبده من بين أساتذته في هذين المعهدين، ثم استعان به في تحرير الوقائع المصرية مع إبراهيم اللقاني، ومحمد صالح، وسلطان محمد، وغيرهم(١)، وبعد تخرجه عمل فى التدريس والقضاء وفى الجامعة المصرية الأهلية عند إنشائها، وهو من الكتاب الذين تأثروا بطريقة ابن العميد والقاضى الفاضل، شأنه فى ذلك شأن كثير من كتاب عصره الذين تأثروا بإحياء التراث القديم، فسجع واقتبس وأزوج فى رسائله، وأنشأ مقامات لا تكاد تفترق فى أسلوبها عن مقامات الحريرى وبديع الزمان، وفى الوقت نفسه كتب رسائل بليغة بأسلوب مرسل خالى من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية(٢)، وقد أشار إلى ذلك أحمد الإسكندرى بقوله : «وحفنى بك ممن تم على أيديهم نقل الكتابة من الطريقة البديعة المسجوعة الكثيرة التورية التى سميناها طريقة القاضى الفاضل إلى طريقة الترسل الحالية.. . وله فى كلتا الطريقتين رسائل بليغة»(٣) وهذه المرحلة كانت تمهيدًا للكتابة الفنية التى بلغت قمتها على يدى العقاد والرافعي والمازني وطه حسين والزيات .

على أن أهم عمل قام به حفنى ناصف هو ضبط المصحف الشريف ورسمه بالصورة التى هو عليها الآن، وكانت وزارة المعارف قد عهدت إليه بتصحيح الأغلاط الإملائية التى وقعت فى رسم المصحف نتيجة تكرار طبعه،

(١) محمود غنيم : **حفنى ناصف بطولته فى مختلف الميادين** : ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق : ص ٦ .

(٣) أحمد الإسكندرى : **الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه** : ص ٣٥٢ .

فقام بمراجعة المصحف وابتدع قواعد خاصة بالإملاء الذى كتب به فى عهد الخليفة عثمان ﷺ، وقد صحح وفقًا لهذه القواعد نحو مائتي خطأ إملائى، وطبع المصحف الجديد، فجاء خاليًا من الأخطاء، وقد وضع حفنى ناصف كتابًا فى قواعد رسم المصحف، ولكنه لم يطبع بعد»(١)، وكان حفنى ناصف يرى أن المحافظة على الرسم العثمانى أمر يجب اتباعه صيانة للقرآن الكريم من العبث، وقد استغرق هذا العمل منه زهاء سبع سنوات، وكان يساعده فى هذا العمل العالمان الجليلان أحمد الإسكندرانى ومصطفى العنانى .

وكان حفنى ناصف من المؤسسين لإنشاء الجامعة الأهلية مع سبعة عشر رجلاً من أعلام السياسة والرأى فى مصر، اجتمعوا فى بيت سعد زغلول لهذا الغرض في سنة (١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦م)، وتولى حفنى ناصف إعداد اللائحة لهذا المشروع بمساعدة عضوين آخرين هما مرقس حنا، وعلى فهمى، ولم تحل سنة (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨م) حتى دخل المشروع فى حيز التنفيذ، وتولى حفني ناصف رئاسة مجلس إدارة الجامعة في تلك السنة(٢) .

وإلى جانب ذلك صنف عدة كتب فى النحو والبلاغة والإنشاء كانت من الكتب المقررة في المدارس، وطبعت محاضرات له في تاريخ الأدب العربى التي ألقاها في الجامعة المصرية، وبهذا كان حفنى ناصف من باعثي النهضة الأدبية الحديثة(٣) .

وفى مجال التجديد فى الكتابة الفقهية يبرز اسم الفقيه الكبير «**أحمد إبراهيم بك**» الذى تلقى تعليمه بالأزهر ودار العلوم، وحضر دروس الإمام محمد عبده التى كان يلقيها فى الأزهر، وفى بيته(٤)، وبعد تخرجه عمل بالتدريس فى مدرسة الحقوق، ثم انتقل أستاذًا إلى مدرسة القضاء الشرعى حين أنشئت سنة (١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧م)، وظل بها سبعة عشر عامًا، تخصص فيها فى تدريس الفقه، وعلى يديه تخرجت طائفة من كبار الفقهاء المجددين، يأتى فى مقدمتهم الشيخ «على الخفيف» ببحوثه

(١) محمود غنيم : **حفنى ناصف بطولته فى مختلف الميادين** : ص ٧٣ .
(٢) المصدر السابق : ٦٣ .
(٣) تشارلز آدمس : **الإسلام والتجديد فى مصر** : ص ٢٠٤ .
(٤) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** : ١ / ٧٧٥ .

المبتكرة، وفتاواه الجريئة، وكتبه الرصينة، والشيخ «محمد أبو زهرة» الفقيه المعروف، و«عبد الوهاب خلاف»، و«فرج السنهوري»، و«علي حسب الله»، وكلهم كان له دور بارز فى التجديد الفقهى فى العصر الحديث .

وترجع أهمية الشيخ أحمد إبراهيم إلى كونه ممن تحققت على أيديهم النقلة فى التأليف بين الطريقة القديمة المتبعة فى الكتابة الفقهية، ووضع الحواشى والتعليقات والشروح الحرفية إلى كتابة الفقه بلغة عربية دقيقة العبارة، حسنة البيان، جميلة العرض، ولعل عمله فى مدرسة الحقوق والقضاء الشرعى حيث زامل أساتذة القانون الوضعى جعلته يتأثر بطريقتهم فى الكتابة وفى أسلوبهم فى العرض والتناول .

وهو من أوائل من كتب البحوث الفقهية المقارنة بين القانون الوضعى والفقه الإسلامى حتى صار مرجعًا فى الفقه المقارن وحجة فى الموازنة بين المذاهب الفقهية، وللشيخ أكثر من ثلاثين كتابًا فى الفقه الإسلامى تتناول : الأحوال الشخصية، وأحكام المرأة، والنفقات، والوصية، والمعاملات[(١)] .

وفى مجال التاريخ يبرز اسم الشيخ «**محمد الخضري**» (١٨٧٢ - ١٩٢٧م)، وهو ممن تعلموا بالأزهر ودار العلوم، واتصل بالإمام محمد عبده، وحضر دروسه، وعمل بالتدريس فى دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى والجامعة الأهلية[(٢)]، وهو من المجددين فى الكتابة التاريخية الذين أسهموا بدور فعال فى تقديم مادة تاريخية فى ثوب جديد يختلف فى العرض والتحليل عن كتب القدماء، وهو يمثل النقلة المهمة بين الكتابة الحولية القديمة، والكتابة المنهجية المعروفة الآن، ولا تزال كتبه حتى الآن مراجع يعود إليها الباحثون فى التاريخ الإسلامى، ولم يكن فى كتاباته يميل إلى السرد التاريخى دون مناقشة أو تحليل والكشف عن الأسباب ودراسة النتائج، وما كتبه عن الدولة الأموية وإنصافها يعد الأساس الذى تأثرت به الدراسات

---

(١) انظر فى ذلك ما كتبه عبد الوهاب خلاف فى مجلة القانون والاقتصاد ـ العددان السادس والسابع ـ السنة ١٥، ١٩٤٥ م .

(٢) محمد الخضرى : **أصول الفقه** : ص ١٠ .

(٣) تضم قائمة مؤلفات الخضرى كتبًا فى التاريخ والفقه والأصول واللغة، منها : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، وإتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء، وتاريخ التشريع الإسلامى، ومهذب الأغانى فى ثمانية مجلدات، ومحاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية، ومحاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التى اشتمل عليها كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين . مصادر الدراسة الأدبية : ٢ / ٢٣٥ - ٢٣٦ .

التاريخية الحديثة حول هذا الشأن(٣).

وللخضري مساجلات فكرية مع قاسم أمين حول كتاب تحرير المرأة، وطه حسين في الشعر الجاهلي، وجورجي زيدان عن قصته عذراء قريش، وله مساجلات مع الكاتبة «مي زيادة» حول قضايا المرأة، ويجدر بالذكر أن «مي زيادة» كانت من تلاميذ الشيخ الخضرى حين كان يدرس بالجامعة(١).

وقد صاحب الخضرى شيخه الأستاذ الإمام مصاحبة علمية فقرأ كثيرًا من الكتب بإشارته، وألف بعض البحوث بتوجيهه، ويتحدث الخضرى عن هذه العلاقة فى مقدمة كتابه «أصول الفقه» فيقول : «وفى سنة ١٩٠٥م كلفت أن أملى دروسًا فى أصول الفقه على طلبة كلية غوردون الذين يربون ليكونوا قضاة بمحاكم السودان الشرعية، فبذلت الجهد فى أن أجعل ما أمليه عليهم سهل العبارة، واضح المعنى، ورأيت أن لا فائدة من إكثار الموضوعات، مع استغلاق الألفاظ، فكنت أختار لهم المسائل معتمدًا على أصول البزدوي وشروح ابن الحاجب ... وصادف بعد ذلك أن زارنا الأستاذ الإمام محمد عبده، فأحببت أن أعرض عليه ما كتبته ليكون عندى شيئًا من الاطمئنان، فعرضته عليه، فقرأ كثيرًا منه، وناقش الطلاب فى بعض مسائله، وأثنى على ما كتبته خيرًا، ولكنه أشار عليَّ أن أطالع كتاب الموافقات للشاطبى، وأمزج ما أملى بشيء منه ليكون فى ذلك لفت نظر لطلاب هذا العلم إلى معرفة أسرار التشريع الإسلامى».

وكان لكتاب الخضرى فى أصول الفقه فضل السبق، حيث تأثر به من كتب فى علم الأصول من أساتذة كليتى الحقوق والشريعة الإسلامية بمصر، وللشيخ أيضًا تجربة رائدة أقدم عليها دون سابقة فى هذا المجال، وهو تأليفه لكتاب يتناول تاريخ التشريع الإسلامى، قد رتب مباحثه على العصور، فتحدث عن التشريع فى عصر النبوة، ثم فى عصر الصحابي، حتى وصل إلى العصر الحديث.

ويقترن بالشيخ محمد الخضرى فى تجديد الكتابة التاريخية **الشيخ عبد الوهاب النجار** (١٢٧٩ - ١٣٦٠هـ = ١٨٦٢ - ١٩٤١م)، وقد تلقى تعليمه الدينى فى الجامع الأحمدى بطنطا، ثم

(١) أنور الجندى : **أعلام وأصحاب أقلام** : ص ١٩ .

التحق بدار العلوم بالقاهرة، وكان زميلاً لعبد العزيز جاويش وأحمد إبراهيم، فى هذه المدرسة العتيقة، وحضر دروس الإمام محمد عبده حين كان يقوم بشرح مقدمة ابن خلدون لتلاميذه، ويفسر مراميها، وقد تأثر عبد الوهاب النجار بالمقدمة وبطريقة شيخه، فورث عنه حرية الرأى وأصالة النقد وعمق التحليل وعدم التسليم بالروايات التاريخية حتى يضعها تحت مجهر النقد والنظر العقلى حتى يصل إلى الحقيقة، وقد تحدث عن ذلك بقوله : «كان أستاذنا محمد عبده قبل نفيه إلى بلدة محلة روح مدرسًا بدار العلوم، وكان يكلف الطلبة بدراسة المقدمة، وكان يكتب هو معهم، فتكون من كتابة أستاذنا جزء عظيم من الموضوعات التى تناولها ابن خلدون».

وبعد تخرجه عمل أستاذًا فى المدارس الأميرية، ثم فى الجامعة الأهلية مع زميله محمد الخضرى، ثم عمل فى دار العلوم مدرسًا للمنطق، ثم انتقل إلى كلية أصول الدين أستاذًا للدعوة الإسلامية(١).

وقد غلبت ثقافة عبد الوهاب النجار فى مجال التاريخ على مجالات أخرى من المعرفة كاللغة والتشريع، وكان فيها مبرزًا، وقدم للمكتبة العربية كتاب «قصص الأنبياء»، وكان فتحًا جديدًا فى التأليف فى هذا الميدان، فكشف الزيف المختلط بسير الأنبياء، ونحى فى الكتابة منهجًا دقيقًا فى ضوء قواعد علمية حددت اتجاه بحثه، وقد سردها فى مقدمة كتابه، من تلك القواعد ما يلى :

١ - أن العقل ركن المعتقدات الأول، فما أوجبه كان واجبًا، وما أحاله كان محالاً، وما أجازه كان جائزًا .

٢ - إن الخبر الوارد عن المعصوم إذا كان قطعى الثبوت والدلالة فهو حجة قاطعة على ما تضمنه، وذلك يشمل شيئين الكتاب الكريم والخبر المتواتر .

٣ - إذا عارض الخبر العقل، وجب تأويل الخبر بما يزيل هذا التعارض .

٤ - الخبر إذا كان رواته آحادًا فلا يصلح أن يكون دليلاً على ثبوت الأمور الاعتقادية ؛ لأن الأمور الاعتقادية الغرض منها القطع، والخبر الظنى الثبوت أو الدلالة لا يفيد القطع .

٥ - ما نقل عن الأنبياء مما يشعر

---

(١) انظر فى ترجمة النجار وآرائه وآثاره ما كتبه أنور الجندى فى **أعلام وأصحاب أقلام** : ص ٢٦٢ - ٢٦٧، وما كتبه محمد رجب البيومى فى كتابه «**النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين**»، ١ / ٣١٧ - ٣٣٨ .

بكذب أو معصية مما كان منقولاً بطريق الآحاد، بلغ حد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ للرواة أهون من نسبة المعاصى للأنبياء .

٦ - ما نقل مما يشعر بكذب أحد الأنبياء أو معصيته، وكان النقل متواترًا، فما يمكن صرفه عن ظاهره صرف إن أمكن، وإلاَّ فيحتمل على أنه ترك الأولى أو قبل البعثة .

٧ - المعجزات لا تثبت بخبر الآحاد؛ لأن المطلوب فيها اليقين، وخبر الآحاد لا يقين فيه .

٨ - الإسرائيليات لا حرج فى مخالفتها ولا فى إنكارها جملة وتفصيلاً .

٩ - أقوال المفسرين ليست حجة قاطعة فيما نصت عليه، بل هى أوجه، وكما يجوز حمل القرآن عليها يجوز مخالفتها، وحمل عبارته على غيرها، ولا مؤاخذة على من خالفها .

وقد أثار الكتاب جدلاً واسعًا، وضجة كبيرة بين أروقة جامعة الأزهر التى كان الشيخ عبد الوهاب النجار يدرس بها، ورفع الأمر إلى شيخ كلية أصول الدين الذى شكل لجنتين لقراءة الكتاب والتعليق عليه، وجاء التقريران يتضمنان بعض المآخذ على الكتاب، وكان جميلاً من عبد الوهاب النجار أن يثبت التقريرين فى كتابه، ثم يعلق على كل مأخذ بما يدحضه دحضًا لا شبهة فيه(١) .

ومن تلاميذه من عنوا ببعث التراث العربى القديم، وجمعه وحفظه والتعليق عليه وكتابة البحوث المتصلة به، ومواصلة المسيرة التى بدأها الإمام محمد عبده فى بعث نفائس التراث العربى، وقد سبق أن أشرنا إلى جهوده فى الميدان، وهى جهود تجعله رائدًا فى تحقيق التراث العربي، حيث التزم المنهج العلمى فى تقويم النصوص ونشرها من جمع مخطوطات الكتاب ومقابلتها.

ويبرز فى هذا المجال العالم المصرى «**أحمد تيمور باشا**»، وهو ممن جذبتهم دروس الإمام، حتى أصبح من تلاميذه المقربين . واستفاد على وجه خاص بما كان يلقيه الإمام من محاضرات فى البلاغة التى اعتمد فيها على كتابى «أسرار البلاغة»، و«دلائل الإعجاز» للجرجاني، كما حضر الدروس الخاصة التى كان يلقيها الإمام فى داره حول مسائل الفلسفة مع صفوة من تلاميذه،

(١) محمد رجب البيومى : **النهضة الإسلامية** : ١ / ٣٣٣ .

وبلغ من حرص أحمد تيمور على مصاحبته أنه اشترى دارًا في عين شمس مجاورة لدار الإمام ليعيش بالقرب منه (١).

وهو من أصل كردى ولد بالقاهرة سنة (١٢٨٨ هـ = ١٨٧١م)، ورعته أخته الشاعرة المعروفة عائشة التيمورية، تلقى العلم في بيته وأجاد الفرنسية والتركية والفارسية، وتعلم العربية وعلومها على عدد من شيوخ أدباء العصر حتى صار علمًا في دنيا البحث العلمي، ومؤرخًا واسع الإطلاع على الثقافة العربية(٢) .

ويتجلى دوره الثقافي بالغ الأهمية في عنايته بجمع التراث العربي الذى أنفق فيه زهرة عمره وجل موارده، واستكمل ما كان بدأه شيخه محمد عبده في ضرورة إحياء التراث العربي، وقد ضمت مكتبته الضخمة ما لا يقل عن عشرين ألف مجلد، جمع مخطوطاتها وما فيها من نفائس التراث من الآستانة والمغرب والحجاز واليمن والشام والعراق، وزاد من أهمية مكتبته ما أودعه على كثير منها من تحقيقات وتعليقات وتنبيهات، وجذاذات تكشف عما فيها من فنون ودراسات، وقد أهديت المكتبة بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية(٣) .

كما عنى ببحوث مبتكرة تكشف عن الجوانب الخصبة والغامضة في تاريخنا العربى، مثل : «لعب العرب» و«التصوير عند العرب»، و«أعلام المهندسين فى الإسلام»، و«قبر الإمام السيوطى وتحقيق موضعه»، و«الآثار النبوية»، و«خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب» .

ولما وجد أن دعوات التغريب قد أخذت طريقها في الدعوة إلى العامية واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، قام بتأليف معجم ضخم للعامية، وكان هدفه من هذا العمل هو «إحياء اللغة الصحيحة بذكر العامي وتفسيره ورده إلى نصابه من الصحة إن كان عربى الأصل أو بيان مرادفه إن لم يكن كذلك، ليحل محله، ويرجع إليه في الاستعمال، فإذا جهلناه اقتصرنا على تفسير المعنى وتوضيحه ليتسنى لمن وجده بعدنا أن يتم ما بدأنا به، ويوفى ما قصرنا

(١) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** : ١ / ٧٧٤ .
(٢) يوسف أسعد داغر : **مصادر الدراسة الأدبية** : ٢ / ٢٢٨ .
(٣) أنور الجندى : **أعلام وأصحاب أقلام** : ص ١٩ .

فيه» . ولـه فى هذا الجانب : الأمثال العامية، والكنايات العامية، والبرقيات، وهى تمثل الكلمات التى اعتاد الناس التعبير عنها بألفاظ متعددة (١) .

وقد نشر مقالات كثيرة فى كبريات مجلات عصره وجرائده، كالمؤيد والضياء والمقتبس والأهرام والزهراء والهداية، ومجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، وهى فى مجموعها تدل على سعة الاطلاع والتعمق فى البحث وغزارة المادة وتجعل صاحبها من أكبر كتاب المقالة فى الثلث الأول من القرن العشرين(٢) .

وفى ميدان الإصلاح الدينى اهتدى بمنهج الإمام عدد من كبار العلماء المصلحين يأتى فى مقدمتهم الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ محمد مصطفى المراغى، وهو أحد ثلاثة من كبار تلاميذ الإمام الذين أسندت إليهم مشيخة الأزهر فى النصف الأول من القرن العشرين، والآخران هما : الأحمدى الظواهرى، ومصطفى عبد الرازق .

والشيخ المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م)(٣) من مواليد قرية المراغة من مديرية جرجا بصعيد مصر، تعلم بالأزهر، وحضر دروس الإمام محمد عبده فى البلاغة والتفسير، وحصل على الشهادة العالمية سنة (١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤م)، ثم سافر إلى السودان وعمل هناك بالقضاء حتى تولى منصب قاضى القضاة بالسودان سنة (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨م)، وبعد عودته إلى مصر تقلب فى عدة مناصب قضائية حتى تولى رئاسة المحكمة العليا الشرعية سنة (١٣٤١ هـ = ١٩٢٣م)، وقبل توليه مشيخة الأزهر سنة (١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨م) قام بعدة إصلاحات هامة، حيث أمر بتشكيل لجنة تحت رئاسته لتنظيم الأحوال الشخصية، ووجه اللجنة إلى عدم التقيد بمذهب الإمام أبى حنيفة إذا وجدت فى غيره ما يناسب المصلحة العامة للمجتمع، وكان القضاة قبل ذلك مقيدين بمذهب الإمام أبي حنيفة، وكان يراعى فى آرائه وفتاويه التيسير فى الأمور، ولهذا نادى بفتح باب الاجتهاد، وتوحيد المذاهب الفقهية بقدر الإمكان .

(١) انظر مؤلفات أحمد تيمور فى مصادر الدراسة الأدبية : ٢ / ٢٢٩ - ٢٣٢ .
(٢) المصدر السابق : ٢ / ٢٢٩ .
(٣) انظر فى المراغى وحياته : أبو الوفا المراغى : **الشيخ المراغى بأقلام الكتاب**، ومحمد رجب البيومى : النهضة الإسلامية (١ / ٤١٣ - ٤٣٠)، على عبد العظيم : مشيخة الأزهر (٢ / ١١ - ٤٣) .

وقد تولى المراغى مشيخة الأزهر مرتين، الأولى قصيرة، ومدتها أربعة عشر شهرًا، وفيها وضع مشروعًا لتطوير الدراسة فى الأزهر، واقترح إنشاء ثلاث كليات عليا تتخصص الأولى فى دراسة العلوم العربية . والثانية فى علوم الشريعة، والثالثة فى أصول الدين، مع إنشاء أقسام عديدة للتخصص .

وتضمنت المذكرة التى قدمها المراغي لتطوير الأزهر أفكارًا تجديدية واجتهادات مفيدة للنهوض برسالة الأزهر، فدعا إلى أن تتضمن المناهج الجديدة فى الأزهر دراسة القرآن والسنة دراسة جيدة، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعانى، وأن تهذب العقائد والمعاملات وتنقى مما وجد فيها وابتدع، وأن تهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة .

ودعا إلى وجوب دراسة الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة . وأن تدرس الأديان ليقابل ما هو موجود فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى ليظهر الناس يسره وقدسيته وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف، وأن يدرس تاريخ الأديان وفرقها وأسباب التفرق، وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص، وأسباب حدوثها، وأن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى، مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت إلى ذلك، وأن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف، فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة عند علماء التربية(١) .

لكن هذه المقترحات وقف فى طريق تنفيذها عقبات كثيرة، وهو ما عجل باستقالة المراغى من المشيخة فى (٦ من جمادى الأولى ١٣٤٨ هـ = ١٠ من أكتوبر ١٩٢٩م)، وخلفه فى منصبه الشيخ «محمد الأحمدى الظواهرى» وكان مثله داعية إصلاح، فصدر فى

(١) نشر أبو الوفا المراغى نص المذكرة التى كتبها الشيخ المراغى لإصلاح الأزهر فى كتابه (٢٦ - ٤٠)، وكان الشيخ المراغى قد نشرها بجريدة الأهرام بتاريخ ٥، ٧ أغسطس ١٩٢٨م .

عهده القانون الذى وضعه المراغى، وظهرت الكليات الأزهرية الثلاث إلى النور .

وفى المرة الثانية التى تولى خلالها الشيخ المراغي مشيخة الأزهر بعد استقالة الظواهرى (١٣٥٤ - ١٣٦٤ هـ = ١٩٣٥ - ١٩٤٥م) تابع خطواته الإصلاحية بعد أن انتظمت الدراسة فى الكليات الأزهرية، وسعى إلى إرسال أول بعثة أزهرية إلى الجامعات الأوربية، وأنشأ قسمًا للوعظ والإرشاد، ولجنة للفتوى بالأزهر من كبار علماء الأزهر تجيب عن الأسئلة التى تتلقاها من الأفراد والهيئات . وفى الوقت نفسه أخذ يقرأ كتاب «التحرير» وهو من أمهات كتب الأصول لطلبة كلية الشريعة بطريقة سهلة، ويلقى دروسًا فى تفسير القرآن الكريم متبعًا طريقة أستاذه الإمام محمد عبده فى التفسير الذى يعنى بتوضيح الفكرة العامة عن السورة التى يتناولها، ويستعرض الموضوعات التى تعالجها والمبادئ والحقائق التى تسجلها، مع إعمال النظر والفكر فى فهم الآية واستنباط الأحكام منها(١)، وسعى المراغي إلى ترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة رسمية، تقوم عليها مشيخة الزهر بمساعدة وزارة المعارف، وقد استجابت الدولة لطلبه، لكن المشروع تعثر تنفيذه، ولم يخرج إلى النور حتى الآن(٢) .

أما الشيخ الثانى فهو **الأحمدي الظواهري** (١٢٩٥ - ١٣٦٣ هـ = ١٨٧٨ - ١٩٤٤م)، وهو من أسرة علمية، تلقى تعليمه بالأزهر، وحضر دروس الإمام محمد عبده، وكان معجبًا بأسلوبه فى الكتابة والبحث والتدريس، مؤمنًا بأسلوبه فى إصلاح الأزهر، وحصل على العالمية سنة (١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢م)، وكان الإمام محمد عبده رئيس اللجنة التى امتحن أمامها، وبعد عامين من حصوله على الشهادة نشر كتابًا هامًّا بعنوان «العلم والعلماء» يدعو فيه إلى إصلاح الأزهر وتطوير الدراسة فيه، وإدخال العلوم العصرية فى مناهجه وفقًا لحاجات العصر وتقدم المعرفة، وإلى عقد مؤتمر إسلامى كل سنة فى إحدى عواصم البلاد الإسلامية ليتشاور فيه

(١) عبد الله محمود شحاتة : **الإمام محمد عبده بين المنهج الدينى والمنهج الاجتماعى** : ص ٦٢ - ٦٣.
(٢) على عبد العظيم : **مشيخة الأزهر** (٢ / ٣٥) .
(٣) المصدر السابق : ص ٥٣

مندوبو تلك الدول فى أحوال المسلمين، وما ينبغى عمله لجمع كلمتهم، وبث روح التعاون بينهم(٣).

وقد تقلّب الظواهرى فى عدة وظائف أزهرية قبل أن يتولى المشيخة خلفًا للشيخ المراغى فى (٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٨ هـ = ١٠ من أكتوبر ١٩٢٩م)، وظل فى منصبه نحوًا من خمس سنوات تعد من المراحل الحاسمة فى تاريخ الأزهر، حيث خطا به خطوات موفقة فى مجال الإصلاح الديني (بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م) الذي صدر فى (٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٩ هـ = ١٥ من نوفمبر ١٩٣٠م)، أى بعد عام من توليه المنصب الكبير، وبموجبه أنشئت ثلاث كليات جامعية هى كلية أصول الدين وكلية الشريعة وكلية اللغة العربية، ونظمت المعاهد الدينية كى تمد الكليات الثلاث بحاجتها من الطلاب، واستتبع هذا تطوير المناهج الدراسية، فأدخل تدريس اللغة الأجنبية، وعلوم النفس والتربية، والتربية البدنية، والاقتصاد السياسى، والقانون الدولى، ومحاضرات فى الطب والفلك، وهى دراسات لم يكن للأزهريين عهد بها من قبل . وقد نقل هذا القانون الطلاب من الدراسة بالمساجد إلى مبانٍ مخصصة للتعليم وتحول نظام الحلقات الدراسية التى كانت تعقد فى الأزهر إلى نظام الفصول والمحاضرات

وفى سبيل نشر الدعوة الإسلامية أنشأ الظواهرى مجلة «نور الإسلام» التي أطلق عليها فيما بعد اسم «مجلة الأزهر»، وبدأ صدورها فى المحرم ١٣٤٩ هـ = يونيو ١٩٣٠م)، وأسند رئاسة تحريرها إلى الشيخ محمد الخضر حسين الذى تولى المشيخة بعد ذلك، وقام على أعتاقها نشر آداب الإسلام وإظهار حقائقه نقية من كل لبس، وكشف ما لصق بالدين من بدع، والتنبيه إلى ما دُسَّ بين السنة من أحاديث موضوعة، ودفع الشبه التى تلصق بالشريعة، والعناية بسير عظماء رجال الإسلام(١) .

أما ثالث تلاميذه الذين تولوا مشيخة الأزهر فهو **مصطفى عبد الرازق** (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ = ١٨٨٥ - ١٩٤٧م)، وهو سليل أسرة عريقة اشتهر كثير من أبنائها بخدمة القضية الوطنية،

(١) المصدر السابق : ص ٦٣ - ٦٧.

وقد تلقى الشيخ مصطفى تعليمه بالأزهر، ونال شهادة العالمية سنة (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م)، ثم سافر إلى فرنسا والتحق بجامعاتها، وأعد رسالة لنيل درجة الدكتوراه عن الإمام الشافعى باعتباره مؤسس علم الأصول، وأخرج بالاشتراك مع المسيو برنارميشيل ترجمة دقيقة بالفرنسية لكتاب الشيخ محمد عبده رسالة التوحيد، وبعد عودته إلى مصر سنة (١٣٣٣ هـ = ١٩١٥م) اختير سكرتيرًا عامًّا للأزهر، ثم عمل بالمحاكم الشرعية، ثم انتقل إلى الجامعة المصرية سنة (١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م) أستاذًا للفلسفة، واختير للوزارة عدة مرات، ثم عين شيخًا للجامع الأزهر فى (٢٢ من المحرم ١٣٦٥ هـ = ٢٧ من ديسمبر ١٩٤٥م)، ولم تطل مشيخته للأزهر فقد توفى فى (٢٢ من المحرم ١٣٦٥هـ = ١٥ من فبراير ١٩٤٧م)[١].

اتصل مصطفى عبد الرازق بالشيخ محمد عبده وهو فى سن مبكرة، وتأثر به وبأفكاره الإصلاحية، وكان من خاصة تلاميذه وأقربهم إليه، على الرغم من قصر الوقت الذى اتصل فيه مصطفى عبد الرازق بشيخه. وظل الرجل وفيًّا لشيخه، ولم يترك الحديث عن جهاده تأليفًا ومحاضرة وتدريسًا فى الصحف عن سيرة الإمام وآثاره ووجهته فى الإصلاح، ونقل من أقواله ما يحدد هدفه الإصلاحى حين دعا إلى التوفيق بين العقل والشرع، وإلى تحرير الفكر من التقليد ؛ لأن النظر العقلى هو أساس الإيمان الصحيح «وإلى اعتبار الدين من موازين العقل، وعده صديقًا للعلم، وإلى فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى»[٢].

ويُعد الشيخ مصطفى عبد الرازق رائد الدرس الفلسفى الإسلامى فى مصر المعاصرة وأول أستاذ جامعى يقوم بتدريس الفلسفة الإسلامية من وجهة نظر إسلامية خالصة من خلال كتابه «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية»،

(١) انظر فى ترجمته : على عبد الرازق : **من آثار مصطفى عبد الرازق** : ص ٥ ـ ٧٧، على عبد العظيم : مشيخة الأزهر (٢ / ٧٩ - ٩٢)، حمد بن صادق الحمال : **اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر فى مصر** (٢ / ٨١٢ - ٨١٦)، محمد رجب البيومى «**النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين**»، ٢ / ٤٩ ـ ٦٦، عثمان أمين : **رائد الفكر المصرى محمد عبده** : ٢١٤ - ٢١٨، تشارلز آدمس : **الإسلام والتجديد فى مصر** : ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) محمد رجب البيومى «**النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين**»، ٢ / ٥٤ .

(٣) أحمد محمد جاد : **فلسفة المشروع الحضارى بين الإحياء الإسلامى والتحديث الغربى** : ١ / ١٤٥ .

وكانت الفلسفة الإسلامية تدرس من قبل فى الجامعة المصرية من خلال الدرس الاستشراقى الذى ربط الفلسفة الإسلامية بالتراث الفلسفى اليوناني(٣)، وقدم الشيخ مصطفى عبد الرازق رؤية جديدة تلتمس نشأة التفكير الإسلامى الفلسفى فى كتابات المسلمين أنفسهم قبل أن يتصلوا بالفلسفة اليونانية، ويتدارسونها دراسة وافية، فدعا إلى تدريس علم الكلام وعلم التصوف فى أقسام الفلسفة، وإلى البحث عن أوجه الأصالة والابتكار فى الفلسفة الإسلامية، ورأى أن الاجتهاد بالرأى بداية النظر العقلى، ومن ثم فإن علم أصول الفقه يعد علمًا مصطبغًا بصبغة فلسفية، وأن علم الكلام والتصوف جزء من الفلسفة الإسلامية (١).

ويقول فى ذلك : «وعندي أنه إذا كان لعلم الكلام ولعلم التصوف من الصلة بالفلسفة ما يسوِّغ جهل اللفظ شاملاً لهما، فإن علم أصول الفقه ليس ضعيف الصلة بالفلسفة ومباحث أصول الفقه تكاد تكون فى جملتها من جنس المباحث التى يتناولها علم أصول العقائد الذى هو علم الكلام .. . وأظن أن التوسع فى دراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية سينتهى إلى ضم هذا العلم إلى شعبها .. .»(٢).

ومنذ أن أعلن مصطفى عبد الرازق دعوته التجديدية إلى درس الفلسفة الإسلامية فى مظانها الحقيقية حتى سارع تلاميذه إلى إحياء الفكر الفلسفى الإسلامى، من أمثال : محمود الخضيرى الذى كشف عن ملامح الفلسفة الإسلامية الحقيقية فى عصورها المختلفة، ومحمد مصطفى حلمى الذى كتب عن الحياة الروحية فى الإسلام وانبثاقها فى جوهرها عن الإسلام وحده وملأت كتاباته فى التصوف فجوة كبيرة فى تاريخ الفلسفة الإسلامية، وقدم محمد عبد الهادي أبو ريده دراسات رائدة عن المعتزلة متمثلة فى فكر إبراهيم بن سيار النظام الذى كتب عنه دراسة رائدة(٣)، وعنى على سامى النشار بتتبع نشأة الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامى، وقدم دراسة ضافية فى ثلاثة أجزاء حول

(١) على سامى النشار : **نشأة الفكر الفلسفي فى الإسلام** : ١ / ٤٦.
(٢) مصطفى عبد الرازق : **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية** : ص ٢٧
(٣) على سامى النشار : **نشأة الفكر الفلسفي فى الإسلام** : ١ / ٢٤. (٨٥) محمد عبد الغنى حسن : **تراجم عربية** : ١٧٩ - ١٨٠.

هذا الموضوع .

ويلحق بهؤلاء الثلاثة **الشيخ محمد شاكر** (١٣٠٣ ـ ١٣٥٨ هـ = ١٨٨٦ ـ ١٩٣٩م)، الذى كان له دور بارز فى مسيرة الإصلاح والتجديد الثقافى والفكرى فى الأزهر، وفى ميدان العمل السياسى حيث كان من أقطاب ثورة ١٩١٩م .

وقد بدأ الشيخ محمد شاكر حياته أمينًا للفتوى، فنائبًا لمحكمة محافظة القليوبية، ثم عين فى منصب قاضى القضاة فى السودان سنة (١٣١٨ هـ = ١٩٠٠م)، وهو أول من تولى هذا المنصب هناك بترشيح من شيخه الإمام محمد عبده الذى كان يمكّن بثاقب نظره لمن يجد في تلاميذه القدرة على الإصلاح، وظل الشيخ محمد شاكر فى السودان أربع سنوات لم يقتصر فيها عمله على القضاء، ولكنه كانت فيه طبيعة المعلم وقدرة الواعظ ومزية الخطيب، فما ضن على أهل السودان بدرس علمي، ولا بخل عليهم بموعظة، وتوج ذلك كله بقراءة صحيح البخارى كله».

ولما عاد إلى القاهرة سنة (١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤م) عين شيخًا لمعهد الإسكندرية الدينى الذى رئى أن يكون تابعًا للجامع الأزهر فى التدريس والامتحانات، كما قرر مجلس الأزهر أن يكون شيخًا لعلماء الإسكندرية، وكان وراء هذا الاختيار الإمام محمد عبده الذى وجده أهلاً لهذا المنصب الجديد، وكان الشيخ محمد شاكر عند حسن الظن، فنهض بالمعهد نهوضًا فائقًا، وأدخل فى المناهج الثقافة الجديدة، وجعل تعلمها إجباريًا، فازدهر معهد الإسكندرية بهذه العلوم إلى جانب علوم الدين واللغة . واستن الشيخ محمد شاكر فى معهده سُنّة توزيع الجوائز العلمية على الطلاب الناجحين جميعًا، وكانت كتبًا قيمة تفيد الطالب وتنمى ثقافته العربية مثل ديوان الحماسة لأبى تمام، ومقدمة ابن خلدون، ونهج البلاغة، والمثل السائر لابن الأثير، وديوان المتنبي .

ثم انتقل الشيخ محمد شاكر بعد ذلك وكيلاً للجامع الأزهر سنة (١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م)، وفى عهد وكالته صدر قانون النظام فى الأزهر سنة (١٩١١م)، وبمقتضاه قسمت الدراسة إلى مراحل لكل منها نظام ومواد خاصة .

وبعد خروجه من العمل الوظيفى عين

فى الجمعية التشريعية التى أنشئت سنة (١٣٣١ هـ = ١٩١٣م)، وفى هذه الفترة بدأ دفاع الرجل عن الإسلام، والدعوة إلى أن يكون المسلمون أمة واحدة مهاجمًا فكرة القوميات التى رآها بدعة لتفريق الكلمة وتقطيع الأحكام .

وحين اشتعلت ثورة ١٩١٩م كان واحدًا من خطبائها وكتابها المعروفين، مدفوعًا إليها بوطنية صادقة، وشارك فى كل الجدل الذى كان يدور حول إعداد مواد الدستور، «ومن يتابع صحافة العشرينيات يلحظ وجوده شديد الفاعلية فى الساحة السياسية والفكرية الوطنية، فعندما وضع دستور ١٩٢٣م، كان مقترحًا أن يتضمن نصًّا مؤداه ليس لمواطن مصرى أن يحتج بأحكام دينية للتخلص من أداء الواجبات المفروضة عليه كوطنى أو جندى، وانبرى الشيخ يدحض هذا الاقتراح الذى يفيد أن المسلم لا يحق له أن يحتج بأحكام الإسلام، كما هاجم بشدة اقتراحًا آخر متعلقًا بحرية الاعتقاد الدينى، دون قيد ؛ لأن النص لا يفيد ذوى الأديان غير السماوية، ولكنه يفيد الإلحاد والجهر به، واقترح وجوب أن يفيد النص بوجوب حماية الأديان المعترف بها فى مصر، واستطاع الشيخ بنفوذه الفكرى أن يرفع هذين من مشروع الدستور»(١) .

وجدير بالذكر أن الشيخ محمد شاكر والد العالمين الجليلين أحمد محمد شاكر المحدث المعروف، وكان من تلاميذ مدرسة الإمام محمد عبده، والأديب الكبير محمود محمد شاكر .

وعلى نحو ما كان الإمام محمد عبده مصلحًا دينيًّا، وترك خلفه عددًا ممن تابع مسيرته فى إحياء الفكر الإسلامى وإصلاح المؤسسات الدينية، فإنه كان مصلحًا فى الأدب واللغة، ومحررًا للغة الكتابة الصحفية من قيود السجع والبديع إلى الأسلوب المرسل البليغ الذى يعبر عن الأفكار فى سهولة ويسر . وقد تجلى فى بيانه وبخاصة فى كتاباته المتأخرة نصاعة الفكرة، وصدق العاطفة، ومتانة الأسلوب، وقوة الحجة، وسلامة البرهان، وسهولة الألفاظ، مثلما ظهر فى مساجلته مع «هانوتو» وللشيخ أيضًا رسائل إخوانية كتبها بأسلوب يحتفى فيه بالعبارة، ويصور مشاعره تصويرًا فنيًّا، وكانت له وسائل فى التأثير على لغة الكتابة فى عصره، واستغل منصبه فى

(١) طارق البشرى : من حمل مصر والعرب فى القرن العشرين، **مجلة وجهات نظر**، العدد الثانى عشر، يناير ٢٠٠٠م .

الوقائع المصرية من الإشراف على لغة الجرائد الأخرى، وسلامتها من الخطأ والتحريف، وأفسح المجال لفريق من طليعة الكتاب لكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية بإشارة، وكان يرى أن اللغة العربية هى أساس الدين، وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال(1) .

واستعان بعدد من الوسائل لترقية اللغة العربية والارتفاع بمستواها الفنى عند الكتّاب والمتطلعين للأدب، فشرح نهج البلاغة، ومقامات بديع الزمان الهمذانى، ونشرها، ليكونا زادًا لطلاب الأدب ومن ينشدون قوة الأسلوب وسلامة التغيير، وقام بتدريس كتابى «دلائل الإعجاز» وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى، وعهد إلى الشيخ ياسين بن على المرصفى تدريس كتب الأدب فى الأزهر، مثل : الكامل للمبرد، وديوان الحماسة، وقد تتلمذ على المرصفى عدد كبير من أدباء مصر البارزين من أمثال طه حسين والزيات(2) .

وبهذه الوسائل قدم الإمام محمد عبده للنثر العربى خدمة جليلة ووجه الكتاب إلى العناية بما يكتبون فى لغة قوية مرسلة، وعرف من تلاميذ الإمام محمد عبده المجددين فى عالم الأدب **مصطفى لطفى المنفلوطي** (١٢٩٣ - ١٣٤٢ هـ = ١٨٧٦ - ١٩٢٤م)، وكان يحضر دروس الإمام محمد عبده فى البلاغة وتأثر به تأثرًا قويًّا، وتظهر آثار صلات المنفلوطى بشيخه محمد عبده فى الحملة التى شنها على المفاسد التى دخلت الإسلام وفى دعوته إلى الإصلاح، فدعا إلى تعليم المرأة وتثقيف الشباب ونظافة المجتمع ومهاجمة بيوت الدعارة وأخلاق السفلة والمرتشين والمقامرين(3)، وأدع الزيات يصور منزلته فى عالم الكتابة بقوله : «أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد إشراق البشاشة، وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير، ورن فى أسماء الأدباء رنين النغم، ورأى القراء والأدباء فى هذا الفن الجديد ما لم ير فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع، وما لا يرون فى غثاثة الصحافة، وركاكة

---

(1) عمر الدسوقى : **فى الأدب الحديث** : ١ / ٣٠٦ .
(2) المصدر السابق : ١ / ٣٠٦ .
(3) تشارلز آدمس: **الإسلام والتجديد** : ص ٢٠٦ .
(4) أحمد حسن الزيات : افتتاحية **مجلة الرسالة** : العدد ١، ١٩٣٧ م، نقلاً عن كتاب النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين : ٢ / ١٦٨ .

الترجمة فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد العذب»[٤] .

ومن تلاميذ الإمام المجددين فى ميدان النثر والبيان «**عبد العزيز البشري**» ١٣٠٣ - ١٣٦٢هـ = ١٨٨٦ - ١٩٤٣م) وهو سليل أسرة كريمة، فوالده الأستاذ الكبير سليم البشرى، شيخ الجامع الأزهر، وإمام الحديث النبوى، التحق بالأزهر، وحضر دروس الإمام مع غيره من صفوة التلاميذ، أمثال: المنفلوطى، وعبد الرحمن البرقوقى[١] .

ويعد «عبد العزيز البشري» من أمتع الكتاب الذين كان لهم دور فى تحليل الأمراض الاجتماعية وانتقاد التعاليم البالية التى يعيشها المجتمع، وقدم ذلك فى أدب قوى، ولغة رصينة، وبيان آخذ وقدرة على السخرية، يذكر بأساليب البلغاء فى أزهى عصور العربية .

وفى مقالاته البليغة كان يطالب بحقوق الفتاة فى اختيار زوجها، وبحماية العامل والأجير ورعاية الفلاح .

واشتهر «عبد العزيز البشري» بقدرته الفذة على تصوير الشخصيات، فصور بقلمه تصويرًا ساخرًا كثيرًا من زعماء البلاد وأقطاب الفكر والأدب واللغة ونقدهم فى طرافة وروعة دون ابتذال وتجريح، وهو لا يكتفى بتصوير الصورة الخارجية، بل يغوص فى أغوار القلب وأعماق النفوس، وكان ينشر هذه المقالات تحت عنوان فى «المرآة» فى صحيفة السياسة الأسبوعية، وممن صورهم : الدكتور «على إبراهيم» الجراح المعروف، و«حافظ إبراهيم»، و«محجوب ثابت»[٢]..

وكان الشاعر الكبير **حافظ إبراهيم** (١٢٩٠ - ١٣٥١ هـ = ١٨٧٣ - ١٩٣٢م) من تلاميذ الإمام وأقربهم إليه صلة، واشتهر باتجاهه الاجتماعى لعنايته بالبؤساء والمنكوبين . تخرج فى المدارس المدنية، والتحق بالمدرسة الحربية، وعين بعد تخرجه ضابطًا فى الجيش المصرى فى السودان، وظل هناك عدة سنوات، ثم عاد إلى مصر وخرج من الجيش، واتصل بالشيخ محمد عبده، وتوثقت بينهما الصلات، وصحبه فى كثير من تنقلاته فى الريف المصرى للدعوة إلى فعل الخير أو للترويج للإصلاح[٣] .

وقد نظم «حافظ إبراهيم» فى هذه

(١) محمد رجب البيومى «**النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين**»، ٢ / ٣٣٣ .
(٢) جمال الدين الرمادى : **من أعلام الأدب المعاصر** : ص ٧١ .
(٣) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** : ١ / ٦٠٤.

الفترة عددًا من أجود قصائده وأكثرها صدقًا وإخلاصًا، فهاجم الإنجليز والخديوي ورجال القصر، ونقد بعض النظار والحكام، وكان شعره وطنيًّا خالصًا، وكان يقترن به لون صارخ من الشعر الاجتماعى لم يسبق إليه، فهو فيه يحارب الفقر والجهل والعلل الاجتماعية والخلقية، ويدعو إلى البر بالفقراء وإنشاء الجمعيات والملاجئ، وإلى النهوض بالتعليم وإنشاء المعاهد ودور العلم والدرس وهو فى هذا اللون من الشعر الاجتماعى سابق لشعراء العرب، فلم تعرف العربية شاعرًا اجتماعيًّا من طرازه(١) .

وقد عبر حافظ إبراهيم عن آرائه الإصلاحية فى كتابه «ليالى سطيح»، وتقوم فكرته على حوار بين المؤلف وغيره من أبناء النيل والتلاميذ، وبين سطيح وهو فيلسوف ناسك كانوا يسمعون مقاله دون أن يرونه، وقد تناول الحوار شؤون البلاد فى مصر، مثل السخرية من مشايخ الطرق الصوفية، ومبالغة المصريين فى جعل خدمة الحكومة أكبر غاية يرمون إليها من التعليم، ونقد الصحف لما فشا فيها من الاستبداد باسم الحرية ولفشلها فى تعليم الناس والنهوض بهم لانحطاط لغتها(٢).

وفى ميدان السياسة يبرز **سعد زغلول** (١٢٧٤ - ١٣٤٦هـ = ١٨٥٧ - ١٩٢٧م)، وهو واحد من شيعة محمد عبده، وكان بروزه لافتًا له فى الحياة السياسية الحديثة فى مصر، وصلته بالإمام صلة قديمة فقد كان واحدًا من تلاميذه منذ أن التحق بالأزهر، وحضر بعض دروس الأفغاني، ولما تولى الإمام رئاسة تحرير الوقائع المصرية اختار سعدًا ليعاونه فى تحريرها على الرغم من صغر سنه، وتمرن تحت إشرافه على الكتابة فى الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ثم اشتغل بالمحاماة بعد نفى الإمام محمد عبده، وطارت شهرته لكفاءته، ثم انتقل إلى القضاء وتدرج فى مناصبه حتى صار مستشارًا فى محكمة الاستئناف، ثم تولى وزارة المعارف المصرية سنة (١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م)، فاهتم بشؤون التعليم والثقافة، وحرص على نشر اللغة العربية، وتعميمها فى المدارس المصرية، ثم تولى وزارة الحقانية،

(١) شوقى ضيف : **فصول فى الشعر ونقده** : ص ٣٥٧ .
(٢) تشارلز آدمس : **الإسلام والتجديد** : ص ٢٠٦.

ثم انتخب فى الجمعية التشريعية سنة (١٣٣٢ هـ = ١٩١٣ م)، فوكيلاً منتخبًا لها، ثم اضطلع بتأليف حزب الوفد وقيادة ثورة ١٩١٩م، وعلى يديه ألفت أول وزارة برلمانية فى (٨ شعبان ١٣٤٢هـ = ١٥من مارس ١٩٢٤م)، ثم انتخب رئيسًا لمجلس النواب سنة (١٣٤٥هـ = ١٩٢٦م)، وكانت وفاته سنة (١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧م) .

أربعة أعلام وأربعة تيارات :

لعل الإمام محمد عبده هو أشبه الناس فى تاريخنا بالحسن البصرى الذى كان إمامًا من أئمة أهل السنة، وفقيهًا ومجتهدًا صاحب مذهب، مثل غيره من أصحاب المذاهب الفقهية، ورأسًا من رؤوس المتصوفة، وواحدًا من أئمة القراء الأربعة عشر، فهو صاحب قراءة فى القرآن الكريم يعرفها أهل الاختصاص، ومن عباءته خرج مذهب الاعتزال الذى ملأ الدنيا وشغل الناس، وكذلك كان الإمام محمد عبده، فقد اشتغل بالتجديد الدينى، والإصلاح الاجتماعى، وتحرير الفكر من أغلال الجمود والتعصب، وكان زعيمًا فى دنيا الأدب، ورائدًا فى الفكر، ومجددًا فى الدين، ومصلحًا فى شؤون الدنيا، ومعلمًا يبحث عن الطاقات الكامنة فى نفوس تلاميذه، ليوجههم إلى العمل فى ميادين مختلفة، وتلاميذه لم يكونوا مثل أى تلاميذ يلتفون حول معلمهم وإنما كانوا أعلامًا أخذوا من نفسه روح الإصلاح، ومن قلبه نور البصيرة، ومن علمه مصابيح الهداية، ومن عزيمته الصبر والتحمل والمضى فى الطريق ؛ ولذلك يعد رائد حركة التجديد والملهم لمعظم مدارس التنوير، والباعث لحركات الإصلاح، ونستطيع أن نرصد أربعة من تلاميذه كان لهم دور بارز فى مسيرة البعث والتجديد، ويمكن تجاوزًا أن نطلق عليهم أنهم كانوا مدارس فكرية التف حولها التلاميذ وصارت لها قسمات خاصة بها، وهذه المدارس هى :

١ - أحمد فتحى زغلول ومدرسة الجريدة :

مدرسة الجريدة هى مجموعة من المثقفين الذين كانوا يكتبون فى صحيفة «الجريدة» لسان حزب الأمة الذي أنشئ فى (٢٣ شعبان ١٣٢٥هـ = ٢١ من سبتمبر ١٩٠٧م)، وكان معظمهم من جماعة الإمام محمد عبده التى تحلقت حوله وتأثرت بأفكاره واتجاهاته ومواقفه السياسية، وفى الوقت نفسه اتصلوا من

قريب بالفكر الأوربى، وكانت ثقافتهم فى معظمها فرنسية، وكان يتزعم هذه المدرسة أحمد لطفى السيد، رئيس الجريدة، وواحد من تلاميذ الإمام محمد عبده .

وقد تضمن برنامج الحزب كثيرًا مما كان يدعو إليه الإمام محمد عبده من الدعوة إلى تعميم التعليم الأولى، وترقية التعليم العالى، ونشر مبادئ الحكم النيابى بالتدريج بواسطة المجالس النيابية والمجالس المحلية، لكنهم مضوا فى الشوط بعيدًا عن أفكار الإمام فرفضوا سيادة الدولة العثمانية على مصر، وعملوا على تنمية مشاعر الوطنية المصرية كبديل للجامعة الإسلامية التى كانت سائدة فى عصرهم، كما وجدت فكرة الدولة العلمانية التى ينفصل فيها الدين عن السياسة صداها على صفحات الجريدة، ولم يكن هذا من أفكار الإمام محمد عبده أو من أصول دعوته الإصلاحية .

وفتحت الجريدة صفحاتها لكبار الكتاب من مختلف التيارات الفكرية، مثل: الشيخ رشيد رضا، وعبد العزيز فهمى، ومصطفى صادق الرافعى، ومحمد السباعى، وعزيز خانكى، واحتضن لطفى السيد فريقًا من الشباب وشجعهم على الكتابة مثل محمد حسين هيكل وعباس العقاد، ومصطفى عبد الرازق وغيرهم .

وضمت مدرسة الجريدة عددًا من الكتاب والمفكرين ممن كان لهم دور فى النهضة الفكرية، ففى مجال الفكر السياسى برز : أحمد فتحي زغلول، وأحمد لطفي السيد، وفى ميدان الإصلاح الاجتماعى وقضية المرأة : قاسم أمين، وطلعت حرب، وباحثة البادية، وفى مجال الفكر الاقتصادى لمع : طلعت حرب وعلى أبو الفتوح الذى أسس جمعية لتعريب الكتب الاقتصادية، وظهر فى ميدان الأدب : محمد حسين هيكل، وإبراهيم رمزى، ومصطفى عبد الرازق وكان أديبًا صاحب ذوق مرهف، إلى جانب تمكنه من الفلسفة .

وسنتعرض لواحد من أهم أعلام هذه المدرسة، وهو أحمد فتحى زغلول (٤ من ربيع الأول ١٢٧٩ هـ = ٢٢ من فبراير ١٨٦٣م) بقرية إبيانة التابعة لمحافظة الغربية آنذاك، وتلقى تعليمه الأولى فى كتَّاب القرية . ثم انتقل إلى مدرسة رشيد، فالمدرسة التجهيزية، ثم تلقى تعليمه العالى فى مدرسة الألسن سنة (١٣٠١ هـ = ١٨٨٣م)، ومكَّنه نبوغه

فى الدراسة أن تبعثه الدولة لدراسة الحقوق بفرنسا، وهناك حصل على درجة الليسانس فى القانون سنة (١٣٠٤ هـ = ١٨٨٧م)، وبعد عودته تقلب فى عدة وظائف فى القضاء، وأنهى حياته الوظيفية وكيلاً لوزارة الحقانية (العدل) وتوفى فى (١١ من جمادى الأولى ١٣٣٣ هـ = ٢٧ من مارس ١٩١٤م) .

وفتحى زغلول من الرعيل الأول من تلاميذ محمد عبده، ومن أقرب أنصاره إليه، وكان هو وأخوه سعد زغلول يرجعان للإمام فى كل خطوبهما، ويتحاكمان إليه فى تنازعهما . وبلغ من متانة علاقته بالإمام محمد عبده أنه كان ممن يصحبهم للاصطياف معه فى سوريا.

وتتفق أغلب المصادر على أن أحمد فتحى زغلول كان رجل ارتقاء وإصلاح لا رجل ثورة فساهم فى سن القوانين الحكومية، ووضع لائحة المحاكم الشرعية التى تنظم سير العمل بها، وامتدت جهوده إلى إصلاح التعليم بالأزهر، فكان رئيسًا للجنة التى شكلت لهذا الغرض[1]، وقد أصدرت تلك اللجنة القانون رقم (١٠) لسنة ١٩١١م، وهو يعد من أهم القوانين التى جاءت ملبية لآمال العلماء فى إصلاح الأزهر، حيث نظم القانون الدراسة فى المعهد العريق، وحدد اختصاصات شيخ الأزهر، وأوجد هيئة كبار العلماء . كما اشترك مع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية[2]، وكان لتلك الجمعية فضل فى إنشاء عدد من المدارس فى مدن مصر وإقامة المشروعات الخيرية والعناية باللغة العربية، وظل عضوًا فى الجمعية حتى وفاته مشاركًا فى أعمالها ومؤثرًا فى أنشطتها .

ويعد أحمد فتحى زغلول من رواد النهضة الأدبية والترجمة ومن دعاة الإصلاح، رأى أن خير ما يقدمه لوطنه هو أن يترجم له ما يعتبره أنه سر تقدم الغرب وتفوقه، فترجم ستة من الكتب إلى العربية[3]، هى أصول الشرائع لبنتام ونشر فى مجلدين سنة (١٣١٠ هـ = ١٨٩٢م)، والإسلام خواطر وسوانح «للكونت هنرى دى كاسترى»، ونشر

(١) أحمد زكريا الشلق : **أحمد فتحى زغلول وقضية التعريب** : ص ١٥

(٢) المصدر السابق : ص ١٤.

(٣) المصدر السابق : ص ٣٣ .

سنة (١٣١٥ هـ = ١٨٩٧م)، و«سر تقدم الإنجليز السكسونيين» لادمون ديمولاند، ونشر سنة (١٣١٧ هـ = ١٨٩٩م)، و«روح الاجتماع» (١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م)، و«سر تطور الأمم» (١٣٣٢ هـ = ١٩١٣م)، و«جوامع الكلم» (١٣٣٣ هـ = ١٩١٤م)، والكتب الثلاثة لجوستاف لوبون[١] .

وكل هذه الكتب تدور تقريبًا حول معرفة سر تقدم الغرب الأوربى وتناقش فلسفة التطور على النمط الأوربى، كما تتناول الفكر السياسى والاجتماعى على المذهب الليبرالى .

وفى كل كتاب يقوم بترجمته يستهله بمقدمة ضافية، يشرح فيها سبب اختياره ترجمة هذا الكتاب، ويحاول تطبيق الأفكار التى يطرحها المؤلف على أوضاع مجتمعه، وكانت قضية تحديث مصر وتشخيص أدوائها والوقوف على أسباب تأخرها قد ملكت عليه نفسه، وشغلت تفكيره، فوجه لها كل اهتماماته ونشاطاته الفكرية؛ لأن تشخيص الداء يسهل معرفة الدواء[٢] .

ونادى أحمد فتحي زغلول بالحرية فى كل صورها وآمن بدور الفرد وحريته فى صنع الحضارة الإنسانية، وهاجم كافة أنواع القيود، ودعى إلى تقليص دور الحكومة وتدخلها، وإطلاق حرية التعبير للأفراد وكذلك حرية النشاط الاقتصادى والاجتماعى، لأن سبيل التمدن والحضارة والرقى يتمثل فى بعث الهمة الذاتية وإشعال روح المخاطرة، وإطلاق ملكات الأفراد للتنافس والتسابق.

وعنى أحمد فتحى زغلول بالتربية كثيرًا، وكانت قضية تربية الشعب وتثقيفه تمثل جانبًا كبيرًا من نشاطاته وإسهاماته النظرية، حتى إنه يوم احتفال أصدقائه ومحبيه فى حفل أقيم له فى الجامعة المصرية هتف من على منبرها فى الحاضرين من قادة الفكر والأدب : «علموا الأمة ... علموا الأمة»[٣].

وهو بذلك لا يبعد كثيرًا عن مدرسة محمد عبده الإصلاحية التي كانت ترى أن الوسيلة الفعالة للنهوض والخروج من

(١) يوسف أسعد داغر : **مصادر الدراسة الأدبية** : ٢ / ٣٩٩ - ٤٠٠.
(٢) أحمد زكريا الشلق : **أحمد فتحى زغلول وقضية التعريب** : ص ٣٤.
(٣) المصدر السابق : ص ٤٩.

المأزق الحضاري، إنما هى التربية، لكنهما يختلفان فى أن التربية التى يطرحها محمد عبده، كان يشترط لها أن تكون معتمدة على الدين، على حين قدم فتحى زغلول النموذج الإنجليزي للتربية، على أن ذلك لا يعني أن الأخير يقف من النموذج الغربى موقف الإعجاب الذى يلهيه عن النقد الواعى والرؤية البصيرة، فهو يدعو إلى الأخذ من تلك النماذج ما يتلاءم مع طبيعة مجتمعه، ومن ثم لم يكن من دعاة التغريب على إطلاقه، وإنما كان داعية أن تستفيد مصر من العناصر فى حضارة الغرب .

ويعد فتحى زغلول من أكثر أدباء النهضة فى مصر ترجمة عن اللغات الأجنبية، وامتازت ترجماته وكتبه بالبيان المشرق والدقة فى وضع الألفاظ بإزاء معانيها، وتعد آثاره فى الترجمة نموذجًا رفيعًا للتعبير المحكم الدقيق فى سلاسة وجمال . ويرتبط بمسألة التربية وقضية اللغة العربية وجعلها لغة العلم الحديث، فطالب بالتعريب حين لا يوجد للكلمة الأجنبية ما يقابل معناها فى العربية، وإصلاح حروف الهجاء وأشكالها وصورها .

*** محمد رشيد رضا ومدرسة المنار :**

يقصد بمدرسة المنار مجموعة تلاميذ الإمام محمد عبده الذين تأثروا به، وانتهجوا نهجه فى الإصلاح الدينى والاجتماعى، وبيان أن الإسلام يتفق والعلم ومصالح البشر، وإبطال الشبهات الواردة على الإسلام .

و«المنار» هى المجلة التى أنشأها الشيخ «محمد رشيد رضا» أشهر تلاميذ الإمام والترجمان لأفكاره، والشارح لفلسفته في الإصلاح، والمسجِّل لدروسه في التفسير، وقد صدر العدد الأول من مجلة المنار فى (٢٢ من شوال ١٣١٥ هـ ١٦ من مارس ١٨٩٨م)، وعلى صفحات المجلة نشر الإمام محمد عبده تفسيره المعروف الذى استكمله بعد ذلك رشيد رضا، إلى جانب المقالات التى تعالج الإصلاح فى ميادينه المختلفة، وأحوال العالم الإسلامى، والتعريف بأعلام الفكر والحكم السياسية فى أنحاء العالم الإسلامى، ولم تمض خمس سنوات على صدور المجلة حتى أقبل عليها الناس، وانتشرت انتشارًا واسعًا فى العالم الإسلامى، واشتهر صاحبها باسم رشيد رضا صاحب المنار، وعرف الناس قدره وعلمه، وصارت مجلته هى المجلة

الإسلامية الأولى فى العالم الإسلامى .
ورشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥م) أصله من لبنان، وتعلم فى طرابلس، واتصل بالشيخ حسين الجسر، وكان عالمًا فذًا ومن دعاة الإصلاح فى بلاد الشام، وتعلم على يديه، ثم اتخذ من قريته ميدانًا لدعوته الإصلاحية، وغشى الناس فى تجمعاتهم يدعوهم إلى الإقبال على الله وإصلاح حالهم والالتزام بالشرع، وكان رشيد رضا محبًّا للإمام محمد عبده ولمنهجه فى الإصلاح، فغادر بلده إلى القاهرة سنة (١٣١٥ هـ = ١٨٩٨م) واتصل بالإمام محمد عبده، وصار من خاصة تلاميذه، ومن أقرب الناس إليه[(١)]، وقد أشار إلى ذلك بقوله : «إن الله بعث إلى بهذا الشاب ليكون مددًا لحياتى ومزيدًا فى عمرى، إن فى نفسى أمورًا كثيرً أريد أن أقولها وأكتبها للأمة، وقد ابتليت بما شغلنى عنها، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد .. ..»[(٢)] .

وسار محمد رشيد رضا فى اتجاه التجديد الإسلامى الذى سلكه شيخه فى العودة إلى الأصول الإسلامية الأولى البعيدة عن البدع والخرافات، ورفض التقليد والجمود الفكرى الذى عمل على إعاقة أصول الإسلام عن التأثير فى الواقع؛ لأن هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق النهضة الإسلامية فى مواجهة الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي حلت بالمجتمع الإسلامي[(٣)]، وتابع أستاذه فى أنه ليس ثمة تناقض بين الإسلام والعلم، «فالإسلام دين الفطرة والعقل والفكر والعلم والبرهان والحجة والضمير والوجدان والحرية والاستقلال، والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد، وتحقيق التوازن بين النقل والعقل، والنص والعلم، واللجوء إلى التأويل باعتباره وسيلة لتحقيق هذا التوازن، وهو لا يقبل تيار الجمود والانكفاء على الماضى تمامًا، وتقليده والالتزام بالمذاهب أو التعصب لها، وفى الوقت نفسه يرفض دعاة الحضارة العصرية والنظم المدنية والقوانين

(١) انظر فى ترجمته يوسف أسعد داغر : **مصادر الدراسة الأدبية** : ٢ / ٣٨٣ - ٣٨٧، أنور الجندى : **أعلام وأصحاب أقلام** : ص ١٥٣ - ١٦٠، وأفرده بالتأليف إبراهيم العدوى فى كتابه : **رشيد رضا الإمام المجاهد**، وأحمد الشرباصى فى كتاب «**رشيد رضا صاحب المنار**» .
(٢) محمد عمارة : **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** : ٣ / ١٣٥.
(٣) أحمد محمد جاد : **فلسفة المشروع الإسلام** : ٢ / ٤٠٦.

الوضعية الذين يقولون إن هذه الشريعة المدونة لا تصلح لهذا الزمان، ولا يمكن أن تصلح بها حكومة ولا تستقيم بها مصالح أمة(١)، ويرفض رشيد رضا مثل شيخه النزعة الليبرالية العلمانية التي تعتمد على الفصل بين الدين والسياسة على النحو الذي يعرفه الغرب الأوربي، ويسوق في ذلك مبررات كثيرة ودفوع قوية(٢).

وكان رشيد رضا من أشد المنادين بأن يكون الإصلاح عن طريق التربية والتعليم، وهو فى ذلك يتفق مع شيخه الإمام محمد عبده فى أهمية هذا الميدان، «فسعادة الأمم بأعمالها وكمال أعمالها منوط بانتشار العلوم والمعارف فيها».

ولرشيد رضا فضل حث شيخه على تفسير القرآن وفق منهجه وطريقته، حتى قَبِلَ تفسير القرآن فى الرواق العباسى بالأزهر، واستمر فى تفسيره نحو ست سنوات، وبدأ دروسه فى (١٣١٧ – ١٣٢٣ هـ = ١٨٩٩ – ١٩٠٥م)، شرح خلالها خمسة أجزاء، وتوقف عند قوله تعالى : ﴿وكان الله بكل شيء محيطًا﴾ [الآية : ٢٦ من سورة النساء]، ثم قام الشيخ رشيد رضا باستكمال التفسير على هدى من طريقة الإمام ونهجه .

وكانت مجلة المنار هى الصحيفة التى هيأت لآراء الإمام محمد عبده الحظ الأوفى من الذيوع والانتشار، وكانت الأداة التى انتظمت حولها جهود العاكفين على حركة الإصلاح(٣)، وله الفضل أيضًا فى كونه حفظ جانبًا غير قليل من حياة الإمام محمد عبده، ولولاه لضاع الكثير منها، ولنسى الكثير من آثاره .

وكان لمدرسة المنار وفكرها تأثير كبير، فكانت الخلفية الثقافية والدينية لجماعة الإخوان المسلمين، ويعدُّ مؤسس الجماعة حسن البنا واحدًا من تلاميذ هذه المدرسة، وصلته بها متعددة الأطراف، فأبوه «أحمد عبد الرحمن البنا» كان ممن يحضرون دروس الإمام محمد عبده، وكان لحسن البنا صلة وثيقة بالشيخ «محمد مصطفى المراغي» وهو واحد من أكبر تلاميذ الأستاذ الإمام

(١) مجلة المنار : ١ / ٢٩.
(٢) أحمد محمد جاد : **فلسفة المشروع الإسلام** : ٢ / ٤٠٦.
(٣) تشارلز آدمس : **الإسلام والتجديد** : ص ١٩٦.

محمد عبده، وكذلك صلته بالشيخ «رشيد رضا» معروفة، وكان به معجبًا، وله محبًّا»[1] .

وتأثيرات الإمام محمد عبده وتلميذه «رشيد رضا» واضحة فى فكر البنا وطرائقه فى الإصلاح والتجديد، وهى تحتاج إلى دراسة عميقة لبيان تلك الخطوط والقسمات، وبلغ من تقدير البنا لمجلة المنار، وهي التي تعبر عن فكر الرجلين أنه حاول استكمال المنار بعد أن توقفت بعد وفاة الشيخ رشيد رضا، فصدر الجزء الخامس من المجلد الثانى والثلاثين فى غرة (جمادى الثانى ١٣٥٨هـ = ١٨ من يوليو ١٩٣٩م)، لكن هذا الإصدار توقف بعد أربعة عشر شهرًا، كما أنه حاول استكمال تفسير المنار من حيث توقف الشيخ رشيد رضا حين أصدر صحيفة الشهاب، لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح[2] .

وتمتد تأثيرات الإمام محمد عبده وتلميذه «رشيد رضا» إلى كثير من كبار المفكرين الإسلاميين، ولعلها واضحة تمامًا فى فكر الشيخ «محمد الغزالي» فى دعوته الإصلاحية ووقوفه ضد الاستبداد السياسى، واحترامه للعقل، وتقديره للمرأة فى كل ما يكتب، وكراهيته للتعصب والجمود، وهو عندى الحلقة الثالثة التى يجب الوقوف عندها بعد الإمام محمد عبده وتلميذه «رشيد رضا»، وحسن البنا وتأثيره فى حركة الإحياء، ويجمع هذه الحلقات خطوط مشتركة تحتاج إلى مقالة وبيان.

* محمد فريد وجدى ومدرسة الدستور :

يعد «محمد فريد وجدي» واحدًا من شيعة الإمام محمد عبده، وإن لم يذكر أحد ممن تناولوا حياته أنه تتلمذ على الإمام وحضر دروسه فى الأزهر أو فى منزله، لكنه على أي حال يعد من تلامذة الإمام محمد عبده، وهو يذكر أنه تأثر به إلى حد كبير وبكتابه رسالة التوحيد .

وهو من مواليد الإسكندرية، وتنقل بين عدة مدن بسبب عمل أبيه، واستقر فى السويس، حيث كان يعمل أبوه وكيلاً للمحافظة، ولا يعرف على وجه الدقة واليقين أنه تلقى تعليمًا نظاميًا فى

(١) عبد العاطى محمد أحمد : **الفكر السياسى لمحمد عبده**، ص ٢٧٠.

(٢) محمد الغزالى : مقالة بعنوان: هل كان الأفغانى ومحمد عبده خارجين على الإسلام. **مجلة الدوحة**، العدد ٩٧، يناير ١٩٨٤م، قطر .

المدارس المدنية، وكل ما يذكر عنه فى هذه الفترة أنه «أكمل تعليمه فى مكتبة والده متفوقًا فى اللغة الفرنسية، مازجًا ذلك بثقافة عربية إسلامية أصيلة قوامها الأدب واللغة والفقه والتاريخ وعلوم القرآن»(١) .

وقد بدأ التأليف ولفت الأنظار إليه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بكتابه «المدنية والإسلام» الذى ألفه بالفرنسية فى بادىء الأمر، ثم عربه، وصدر فى سنة (١٣١٦ هـ = ١٨٩٩م) بغرض نصرة الدين والدفاع عنه، وتبرئة الإسلام من الأباطيل التي ينسبها إليه بعض الكتّاب، وتفهيم الأوربيين حقيقة الدين الإسلامى، وماهيته، وإثبات أنه ضامن للإنسان نيل السعادتين . أما وجه كونه ضروريًا لا مناص منه، فهو أن الغربيين أصبحوا بجدهم ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الإسلامى، وما داموا جاهلين بحقيقة الإسلام ومعتقدين ما يهذى به بعض كتّابهم ضده، فإنهم لا يستطيعون أن يروا فى ديانة محكوميهم إلاَّ عبئًا ثقيلاً على عقولهم، وحملاً مضنيًا لمداركهم، فلا يقرونهم عليه إلاَّ احترامًا لعواطفهم فقط، راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهذيبه فى المستقبل»، ثم يقول :

«إن الأوربيين معذورون فى تصديق التهم ضد الإسلام والمسلمين، ولهم الحق فى العمل ضدها ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلاَّ البدع التى اخترعها صغار العقول، وقبلها منهم العامة، وزادوا عليها أشكالاً من الأوهام والأضاليل، تنفر منها الطباع البشرية، وتنافى أصول المدنية، كيف نرجو أن يفهم الأوربيون حقيقة ديننا وأنه المانح الوحيد للسعادات كلها حالة كونهم لا يعرفون من دين الإسلام إلاَّ ما يرونه أمام أعينهم كل يوم: مثل الصياح فى الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات، ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للأدب والعقل فى الموالد التى تقام فى كثير من نقط القطر المصرى، ومثل الاجتماع إلى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين والصياح الشديد بالذكر مع التمايل يمينًا ويسارًا، إلى غير ذلك مما لو أردنا ذكره لطال بنا الكلام وخرجنا عن المقام، فهل والحالة هذه نستطيع أن ننكر على من يعيب

(١) أنور الجندى : **محمد فريد وجدى رائد التوفيق بين العلم والدين**، ص ٤.
(٢) نقلاً عن تشارلز آدمس : **الإسلام والتجديد** : ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

ديننا أو يلصق به شائنات التهم»(٢) .

وقد أثار هذا الكتاب إعجاب كثير من النقاد والمفكرين، منهم الشيخ رشيد رضا الذى قرنه بكتاب رسالة التوحيد للإمام محمد عبده الذى صدر فى الوقت نفسه، وقال : «كفى الكتاب شرفًا أننا جعلناه ثانى كتاب رسالة التوحيد التى لم يؤلف مثلها فى الإسلام قط، وأن مؤلفه جرى على آثار الأستاذ فى الرسالة أسلوبًا وبحثًا»(١) .

ولما رأى حاجة الأمة إلى ذخيرة وافية من المعارف الإنسانية فى شتى العلوم والفنون والفلسفات قدم عمله الضخم «دائرة معارف القرن العشرين» فى عشرة مجلدات، استغرق فى إعدادها تسع سنوات (١٣٢٨ - ١٣٣٦ هـ = ١٩١٠ - ١٩١٨م)، وجاءت فى نحو ثمانية آلاف وخمسمائة صفحة، واشترى لها مطبعة خاصة لإنجازها، وقام بهذا العمل الضخم بمفرده، وكانت تصدر فى هيئة أجزاء شهرية، وهذا العمل الضخم يأتى بعد عمل بطرس البستانى «فى دائرة المعارف العربية» التي لم تستكمل وتوقفت عند حرف العين، لكن عمل وجدى جاء كاملاً ومرتبًا مواده على الترتيب الألفبائى، وقدمها بهذه العبارة «قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النقلية والكونية، والنحو والصرف والبلاغة، والمسائل الدينية وتاريخ الفرق والمذاهب والتفسير والحديث والأصول والتاريخ العام والخاص، وتراجم مشهورى الشرق والغرب والجغرافيا الطبيعية والسياسية والكيميائية والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفوائد المنزلية وخصائص العقاقير والإحصاءات، وسائر ما يهم الإنسان».

وقد اعتمد فى عمله هذا على سبع دوائر معارف أجنبية، يراجعها ويترجم منها، فضلاً عن مئات الكتب فى الثقافة العربية والإسلامية، وهو جهد ضخم جبار قام به فرد واحد، لا تقف خلفه جهة رسمية بالمال والعون، وعلى الرغم من ضخامة العمل وقيمته التى أشاد بها الدكتور هيكل، وداود بركات، وأحمد تيمور باشا، فإنه لم يجد صدى طيبًا فى دوائر العلم والثقافة الرسمية(٢)، ويكشف

(١) محمد رشيد رضا : **مجلة المنار**، المجلد الثانى : ١١٠ - ١١١ .
(٢) أنور الجندى : **محمد فريد وجدى رائد التوفيق بين العلم والدين**، ص ٦٥ - ٦٦ .

هذا العمل عن روح جبارة، وعزيمة صادقة، في تقريب المعرفة للناس، فلا نهوض إلاَّ بها .

واستعان محمد فريد وجدى بالصحافة فى نشر أفكاره الإصلاحية، وتوجيه أمته إلى ما يفيد، وله فى هذا تجارب ناجحة، فأصدر مجلة «الحياة» الشهرية سنة (١٣١٧ هـ = ١٨٩٩م)، ثم أنشأ جريدة الدستور، وكانت يومية وصدر العدد الأول منها فى (١٠ من شوال ١٣٢٥ هـ = ١٦ من نوفمبر ١٩٠٧م)، وعلى الرغم من تأييد صاحبها للحزب الوطنى فإنها لم تكن لسان حاله، بل كانت صحيفة ثقافة وعلم، لها طابع يمزج بين الدين والسياسة، وتولى عناية كبيرة ببناء الأمة، عقليًّا واجتماعيًّا، على نحو يجمع بين الوطنية والدين، وبالحركة العلمية الأوربية، وتقديم خلاصات عن الحضارة وتطور العلم والمذاهب والأفكار الجديدة فى الغرب، بأسلوب سهل يفهمه القارىء . وقد عنى محمد فريد وجدى بالمرأة ونشاطها، وكانت زوجته تلي أمر جمعية «ترقية المرأة» فأفرد لها بابًا يوميًّا فى الجريدة بعنون «منبر الأوانس»، حفل بكثير من الدراسات .

واستمرت الدستور ثلاث سنوات توقفت بعدها بعد خلافه مع الحزب الوطنى الذى ينتمى إليه وتركه له، ويذكر العقاد أسباب التوقف وكان من تلامذة محمد فريد وجدى وممن يعاونونه فى إصدار الجريدة : «إن أزمته فى مجال الصحافة إنما كانت أثرًا من آثار المبدأ الذى لا ينحرف عنه الرجل قيد شعرة، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة، وخالف أحب الناس إليه»، وأدى خلافه مع الحزب الوطنى إلى كساد الصحيفة، فعجز عن النهوض بها، ولم يقبل أن يعوض الخسارة بمعونة تفرض عليه من جهات لا تتفق مع عقيدته(١) .

ثم تولى محمد فريد وجدى رئاسة تحرير مجلة الأزهر سنة (١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣م)، وظل فى منصبه حتى سنة (١٣٧١ هـ = ١٩٥٣م)، وكتب خلالها مئات المقالات والأبحاث، يعنى كثير منها بما يكتب عن الثقافة العربية والإسلام فى صحف الغرب(٢) .

---

(١) المصدر السابق : ص ٦٠.

(٢) أنور الجندى : **أعلام القرن الرابع عشر الهجرى** : ص ٢٣٢.

وقد تابع محمد فريد وجدى شيخه الإمام محمد عبده فى دفاعه عن الإسلام وتفرقته بين الإسلام نفسه باعتباره دينًا ونظامًا اجتماعيًّا، وبين ما عليه المسلمون فى العصر الحاضر من تخلف وفقر، وقد دخل فى سبيل تبرئة الإسلام مما يلصقه به خصومه من تهم وشبهات، معارك ومساجلات مع «هانوتو» الذى سبق أن رد عليه محمد عبده، وكرومر وغيرهما.

وهذا المنهج تابعه فيه تلميذه «عباس محمود العقاد» فى كتبه التى خصصها للدفاع عن الإسلام معتمدًا على الحقائق التاريخية والحجج المنطقية والارتكاز على العقل.

ولمحمد فريد وجدي اجتهادات فى موضوع المرأة، فقد أصدر عنها كتابًا بعنوان «المرأة المسلمة» سنة (١٣١٩ هـ = ١٩٠٢م)، قال فيه : إن الدراسات الإسلامية فرضت «التعليم على المرأة كما فرضته على الرجل، وإنها سمحت لها بما لم تسمح به الأمم الراقية إلاَّ فى القرن العشرين، وهى أن تكون مفتية وقاضية، وأن تحضر الصلوات بالمساجد، وأن تشهد الأمور العامة، وتبدي رأيها فيها، وقد استنتجت من ذلك أن دينها يسمح لها بأن تكون ناخبة ونائبة»(١).

وللرجل دراسات موسعة حول الإلحاد والفلسفة المادية، والتوفيق بين العلم والدين، والدراسات الإسلامية، تحتاج إلى دراسة وتقصى لبيان دور الرجل الحقيقى فى النهضة الفكرية والأدبية، فله نحو عشرين كتابًا، فضلاً عن موسوعته الكبيرة، ومئات المقالات التى كتبها فى الصحف والمجلات فى مختلف ميادين الفكر والثقافة والأدب، فقد كان الرجل مشاركًا فى معظم المساجلات الفكرية ومؤثرًا فيها، كمساجلاته مع طه حسين وقاسم أمين وأحمد لطفى السيد ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان وغيرهم.

*** عبد العزيز جاويش وصحيفة الهداية:**

هو واحد من تلامذة محمد عبده، قدمه إليه الشيخ رشيد رضا، وبدأ فى حضور دروسه فى منزله فى عين شمس، وارتبط به ارتباطًا وثيقًا(٢)، وتأثر به

(١) أنور الجندى : **محمد فريد وجدى رائد التوفيق بين العلم والدين**، ص ١٢٤.
(٢) محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام** ١ / ٧٧٣.

وبأفكاره الإصلاحية، على الرغم من كونه من أتباع الحزب الوطنى الذى كان ينتهج نهجًا مغايرًا عن سياسة الإمام الهادئة، فإنه كان يلتقى معه فى عنايته بالتعليم والإصلاح الاجتماعى على أساس عقلانى .

ولد عبد العزيز جاويش بالإسكندرية فى (١٢ من شوال ١٢٩٣ هـ = ٣١ من أكتوبر ١٨٧٦م)، ونشأ في أسرة كريمة تعمل بالتجارة، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم التحق بالأزهر سنة (١٣١٠ هـ = ١٨٩٢م)، وهو في السادسة عشرة من عمره، لكنه لم يمكث به سوى عامين، انتقل بعدها إلى مدرسة دار العلوم بعد أن اجتاز اختبارًا صعبًا في دقائق الفقه والتفسير والنحو والبيان والبديع والإنشاء والتاريخ.

وفي المدرسة تفتحت مواهبه ؛ فتفوق في الطبيعة والفلك، ونبغ في علوم العربية، وعرف خطيبًا مفوهًا وشاعرًا نبيهًا، حتى أتم دراسته في المدرسة وحصل على شهادتها سنة (١٣١٥ هـ = ١٨٩٧م) وهو في الحادية والعشرين من عمره[١] .

وبعد التخرج عمل مدرسًا في مدرسة الزراعة، ثم لم يلبث أن اختير للسفر إلى إنجلترا والتحق هناك بجامعة برورود، وتلقى هناك علوم التربية والطرق الحديثة في التدريس، وظل هناك ثلاث سنوات عاد بعدها إلى القاهرة سنة (١٣١٩هـ = ١٩٠١م) ليعمل مفتشًا في وزارة المعارف، غير أنه لم يمكث في هذه الوظيفة سوى عام ونصف رجع بعدها إلى إنجلترا ليعمل أستاذا للغة العربية في جامعة أكسفورد، وظل هناك في وظيفته خمس سنوات أتيح له خلالها التمكن من الثقافة الإنجليزية، وفهم طبيعة الإنجليز، وتعرف طرائق حياتهم، وفي أثناء إقامته بإنجلترا اختير عضوا في مؤتمر المستشرقين الذي عُقد بالجزائر سنة (١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥م)، وفي هذا المؤتمر رد على محاولات بعض المستشرقين في الطعن في القرآن[٢] .

وبعد عودته من إنجلترا سنة (١٣٢٤ هـ= ١٩٠٦م) عمل مفتشًا عامًّا في وزارة المعارف ثم ترك منصبه سنة (١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م) ليتولى رئاسة

(١) انظر فى حياة عبد العزيز جاويش ما كتبه أنور الجندى فى كتابه: «**عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع**» ، ص ٣٦ - ٥٧ .
(٢) أنور الجندى «**عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع**» ص ٥٥ .

تحرير جريدة «اللواء» التي كان يصدرها الحزب الوطني، وكانت مبادئ الحزب تلقى استجابة عنده، وتجد هوى وقبولا في نفسه؛ فلم يتردد حين عرض عليه الزعيم الوطني الكبير محمد فريد رئيس الحزب رئاسة تحرير الجريدة، ولم تفلح محاولات سعد زغلول وزير المعارف آنذاك في إثنائه عن استقالته من الوزارة.

وبتولّيه رئاسة تحرير جريدة «اللواء» بدأت مقالاته تتوالى دفاعًا عن الأمة وصيانة لحقوقها، وهجوما على الاستعمار وأذنابه والقصر ورجاله، ولم تشغله القضية الوطنية عن قضايا العالم الإسلامي، فإذا كان يرى حق الأمة المصرية في الحرية والجلاء والدستور، فإنه يراه أيضا حقا للعالم الإسلامي، وكان يؤمن بوحدته تحت راية الدولة العثمانية التي يرى في تمزيقها ضياعا للوطن وتمكينا للعدو؛ ولذلك هاجم أحمد لطفي السيد وشن عليه حملة عنيفة حين عارض معاونة مصر لطرابلس التي تعرضت للغزو الإيطالي(١).

وفى هذه الفترة أنشأ مجلة الهداية سنة (١٣٢٨ هـ = ١٩١٠م) وعنى فيها بنشر تفسيره للقرآن على طريقة الإمام محمد عبده، وربطه بالأحوال القائمة بالأمة، مستعينًا فى ذلك بالتاريخ والأدب والاجتماع والسياسة، وبتقريب الإسلام من قيم العصر وثقافته، ومحاولة التوفيق بين الدين وحضارة الغرب، ونادى بوجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان فى تطبيق الشريعة الإسلامية، التى سنت «أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة حتى لا يكون على الناس حرج ولا ضرر، بل رخصت أن يعدل عن النص إذا ثبت ثبوتًا قطعيًا أن الضرورة توجب هذا العدول، وكانت المصلحة التى كانت تنتج من اتباع النص، أقل مما ينتجه هذا العدول»(٢).

وفتحت الجريدة أبوابها لمقالات وأبحاث **الشيخ طنطاوى جوهرى** (١٢٧٩ - ١٣٥٨ هـ = ١٨٦٠ - ١٩٤٠ م)، وهو أيضًا من مدرسة الإمام محمد عبده، واشتهر باجتهاداته بين التقريب بين الدين والعلم، وله تفسير معروف باسم «الجواهر فى تفسير القرآن» حاول فيه تطبيق القرآن على النظريات الحديثة، واستخراج النظريات

(١) المصدر السابق : ص ٨٩.

(٢) محمد محمد حسين : **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر** : ١ / ٣٣٩ - ٣٤٠.

العلميــة من الآيـات القرآنيـة، وهو يقدم منهجًا فـى التفسير يقوم على المشـاهدة والتجربـة، والنظر والتفكـير، واتخذ من هذا المنهـج وسيلة لنهضـة الأمـة ودعوة إلى مزج علوم الحياة بالدين .

وقد جلبت عليه حملاته العنيفـة ضد الاحتـلال متـاعب كثـيرة، وعرضتـه للسـجن الأمر الـذى أجبره علـى مغادرة مصر في جمـادى الأولى (١٣٣٠ هـــ = مـارس ١٩١٢م) والهجرة إلى تركيا، وفي أثناء إقامته بهـا تزعم مع أنصـار الحزب الوطني الذين غادروا مصر إلى تركيا حملة لجمع التبرعات، وإرسـال المؤن والذخائر إلى المجاهدين في طرابلـس لمقاومـة الغزو الإيطـالي، وسـافر إلى المدينـة المنورة سنة (١٣٣٣ هـــ = ١٩١٤م) لإنشاء الجامعة الإسـلامية، وأعاد إصـلاح كلية «صلاح الدين» بالقدس، وتولى إداراتها، واشترك سنة (١٣٣٤هــ = ١٩١٥م) مع الحملة العثمانيـة المتجهـة إلى مصر لتخليصها من الاحتلال الإنجليزي[١]، ثم اتجه إلى ألمانيا بعـد هزيمـة الدولـة العثمانيـة فى الحرب العالمية الأولى وأقام بها .

وبعـد إعلان اسـتقلال مصر في (١٧ مـن رجب ١٣٤٠ هــ = ١٦ من مارس ١٩٢٢م)، عاد إليهـا، أسند إليه منصب مدير التعليـم الأوّلي سنة (١٣٤٤ هــ = ١٩٢٥م)، فاسـتكمل مـا كـان قد بدأه مـن طرق الإصـلاح في التربيـة والتعليم، وانكب علـى عملـه المضـني يجوب البلاد وينشـئ المدارس ويضـع الخطط للنهوض بـالتعليم، ويؤلـف الكتـب في مفـاهيم التربية، وله كتاب بعنوان «غنية المؤدبين» ألفه سنه (١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢م) يدعو فيه إلى ضرورة العناية بتربية الأطفال قبل تعليمهـم، وفرَّق فيـه بين مفهومي التربيـة والتعليم[٢]، وأنشـأ المدرسـة الإعداديـة كنواة ينسـج عليهـا التعليم الثانوي، وقام بجمـع التبرعـات وعمل الاكتتابـات لفتح المـدارس الأوليـة لتعليـم أبنـاء الأمـة ولإكمـال النقـص في عـدد المـدارس الحكوميـة الـتي كـان الاحتـلال حريصـا على أن تكون بمصروفات ؛ حتى لا يقبل عليها إلا أبنـاء الأثريـاء، ودعا إلى إنشـاء مدارس ريـاض الأطفال، وقـال بأنها هي التي تبني التعليم في مصر[٣] .

---

(١) أنور الجندى : **أعلام القرن الرابع عشر الهجرى** : ص ٢٤٩ .
(٢) أنور الجندى «**عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع**» ص ١٦٦.
(٣) المصدر السابق : ص ١٦٨.

ودعا جاويش إلى إصلاح مناهج التعليم والعناية بالتربية كأساس التعليم، ورفع مستوى القائمين على العملية التعليمية والأخذ بالأساليب الحديثة في التربية، وهاجم مناهج التعليم القائمة ؛ لأن الاحتلال هو الذي وضعها، وأشرف على تنفيذها، ودعا إلى التوسع في التعليم الزراعي والصناعي، وعمل على إكمال النقص في برامج مدارس الحكومة، وحماية الطلاب من مناهج التعليم الأجنبي بإنشاء عدد من المدارس تكون تحت رعايته، وامتدت دعوته إلى إصلاح التعليم بالأزهر، وإدخال العلوم العصرية ضمن مناهجه، وفتح أبواب المدرسة الإعدادية التي أنشأها لطلاب الأزهر، وكان من بين من تعلم فيها طه حسين، وقد توثقت العلاقة بينهما، وفتح له باب مجلته الهداية ليكتب فيها، وقدمه للناس .

وتطلع إلى اختيار عدد من الطلاب الأزهريين النابهين الذين يقصدون مدرسته وإرسالهم في بعثات إلى أوربا، ونجح في جمع التبرعات اللازمة لنفقات أول بعثة أزهرية على نفقة الأمة إلى فرنسا، وتكونت من ثلاثة طلاب سافروا إلى فرنسا في (٢٦ من صفر ١٣٢٩ هـ = ٢٦ من فبراير ١٩١١م)، وكان معهم جاويش، وكان الهدف من هذه البعثة الوقوف على أساليب التعليم الحديثة ليطبقها هؤلاء المبعوثون في الجامعة الأزهرية حتى تصبح عصرية، غير أن هذا المشروع توقف بعد سفر جاويش إلى تركيا بعد التضييق عليه ومحاربته.

وامتدت جهوده إلى ميادين أخرى، فدعا إلى ترابط رؤوس الأموال الصغيرة، وإنشاء مصرف وطني، وحارب الخمر ومضار المسكرات، وألّف في ذلك كتابا بعنوان «أذى الخمر ومضاره»، وارتفع صوته بضرورة العناية بالمرأة وتعليمها وإصلاح أحوالها ورفع شأنها، وعارض زواج المصريين من الأجنبيات، وكان له جهود مشكورة في بنيان مفاهيم الإسلام والكشف عن حقائقه في كتابه المعروف «الإسلام دين الفطرة».

وخلاصة القول أن مدرسة الإمام محمد عبده رحيبة الجنبات، ضمت كثيرًا من التلاميذ من ذوى الاتجاهات المختلفة والتيارات المتباينة، كل منها وجد فيها ما يشده ويسير على نهجه، فضمت المجددين والمحافظين بأطيافهم وألوانهم .

ولم تقتصر مدرسته على الذين التقوا به وتتلمذوا عليه، بل صارت أفكاره تيارًا عارمًا، دخل فيه كثير من العلماء والمفكرين والأدباء من أمثال عباس محمود العقاد، والمازني، ومحمد حسين هيكل، ومحمود شلتوت، ومحمد البهي وغيرهم .